دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

من أخلاق الخلفاء الراشدين

للأستاذ حسين نزار طلبة

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

العدد ١٩٤
السنة السابعة عشرة
١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ
٣ من مايو سنة ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضـلا من الله ورضـوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التـوراة ومثلهم فى الانجيـل .. » .

(قـرآن كريم)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ » .

(حديث شريف)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين •• وبعد •

فانى أقدم للقراء هذا الكتيب الذى اشتمل على سيرة الخلفاء الراشدين ، ولم آت بجديد ، فالكتب التى تناولت هذا الموضوع لا تدخل تحت حصر ، ولا فضل لى الا حسن الاقتباس والتنسيق ، وقد جمعت فيه شتات ما تفرق فى شتى الكتب حتى يكون فى متناول الراغبين التزود بقسط وافر من الثقافة الاسلامية ، لما اشتمل عليه عصرهم من صفحات مشرقة فى تاريخ الاسلام الحافل بالمفاخر والأمجاد ، وقد أطنبت فى النواحى الخلقية بقدر ما أوجزت فى النواحى التاريخية حتى يكون اسم الكتاب مطابقا لما ضمنه ، وقد تجنبت بقدر الامكان الأساليب الانشائية والعبارات المنمقة اكتفاء بسرد الوقائع والأحداث التى يستنبط منها القارىء ما جبل عليه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم من أخلاق قويمة ، وصفات حميدة ، وآراء سديدة ، وعلم غزير ، وأدب جم ، وورع وتقوى ، وحزم وعزم ، وحرص على مصلحة الرعية ، الى غير ذلك مما سيرد بيانه تفصيلا ، ولا عجب فهم من خيرة أصحاب رسول الله الذى قال فى شأنهم « أصحابى

كالنجوم ، بأيهم اقتديتم ، اهتديتم » ، ونصحنا بالسير على منوالهم فى قوله « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » عاشروه فساروا على هديه ، واقتبسوا من أنواره ، ونهلوا من فيض حكمته ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتيب خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينتفع به المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، انه سميع مجيب .

المؤلف

الفصل الأول

أبو بكر الصديق

نسبه ومولده وأسرته :

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بسنتين ، فهو أصغر من النبى عليه الصلاة والسلام بعامين ، وكان أبوه أبا قحافة[١] كفيف البصر ، وبعد أن أسلم أبو بكر جاء بأبيه يقوده الى النبى فى المسجد ، فلما رآه عليه السلام قال لأبى بكر « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه ؟ » فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشى اليك من أن تمشى اليه ، ثم مسح الرسول على صدره وقال : أسلم ، فأسلم .

وكان ذلك يوم فتح مكة . وأمه سلمى بنت صخر ، أراد أبو بكر أن يخلصها من ظلمة الكفر ، فقال للنبى : ادع لها عسى الله أن ينقذها بك من النار ، فدعا لها ، فأسلمت ، وسماها النبى : أم الخير ، وماتت قبل أبى قحافة .

---

(١) مات أبو قحافة فى سن السابعة والتسعين ، وورث السدس من مال ابى بكر الذى توفى قبله بستة اشهر ولكنه تنازل عنه لأولاده

● وقد تزوج أبو بكر بزوجتين فى الجاهليــة وزوجتين فى الاسلام • ومن أولاده الذكور : محمد ، وعبد الرحمن[1] ، وعبد الله الذى كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر النبى الى المدينة ، وقد مات فى خلافة أبيه • ومن أولاده الاناث : عائشة أم المؤمنين ، وأم كلثوم ، وأسماء التى كانت تخاطر بحياتهــا لاخفاء هجرته مع الرسول ، وتقوم بتزويدهما سرا بما يحتاجان اليه من طعام وهما فى الغار ، وفى ذات يوم لم تجد ما تربط به طعامهما ، فشقت نطاقها (النطاق الحزام حول الوسط) وربطت به ، فسماها الرسول « ذات النطاقين » وقد تزوجت من الزبير بن العوام ، وعاشت حتى جاوزت المــائة من عمرها •

اســلامه :

كان أبو بكر رضى الله عنه صديقا حميما للنبى عليه الصلاة والسلام قبل بعثته لتقارب سنهما وتشابه أخلاقهما ، فلمــا بعث النبى الى قومه . انطلق رجال من قريش الى أبى بكر وقالوا له : ان صاحبك يدعو الى عبادة اله واحد ويزعم أنه نبى ، فذهب اليه أبو بكر يستطلعه الخبر ، فقال له النبى : ان ربى بعثنى بشيرا ونذيرا ، وجعلنى دعوة ابراهيم ، وأرســلنى الى الناس جميعا » فقال أبو بكر « والله ما جربت عليك كذبا وانك لخليق بالرسالة ، مد يدك فانى مبايعك » ويروى أنه قال للنبى : هل من دليل على قولك ؟ فقال له الرسول : « الرؤيا[2]

---

(1) عاش عبد الرحمن حتى شــهد معركة الجمــل ، وكان فى صفوف أخته عائشة ضد أخيه محمد الذى انضم لعلى بن ابى طالب.

(2) كان أبو بكر فى الشام للتجارة ، فرأى رؤيا فقصها على بحيرا الراهب فسأله عن موطنه ، قال : من مكة ومن قريش ، فقال=

التى رأيتها فى الشام ، فعانقه وقبله وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله » •

● وبعد أن أسلم بنى مسجدا فى فناء داره ، وكان يصــلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاء لا يملك عينيــه اذا قرأ القرآن ، فيجتمع الناس حوله يستمعون الى قراءته وصــلاته ، وكان ذلك سببا فى اسلام كثيرين ، وقد اعتنق الاسلام على يديه نخبة من كبار الصحابة : كعثمان بن عفــان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ابن عبيد الله ، وغيرهم •

مكانتــه عنــد الرســول :

● كان أول الناس اسلاما[1] ، **وعرف فى الاسلام باســم** « الصديق » لأنه صدق النبى عليه السلام فى كل ما أنبأه به من المغيبات ، ومنها : حديث الاسراء ، وكان أناس قد ارتدوا بعد اسلامهم لــا سمعوا هذا الحديث ، ولم تسعه عقولهم ، أما أبو بكر فقال « ان كان قال ذلك فقد صدق ، وانى لأصــدقه فيما هو أبعد : ذلك • فى خبر السماء » ثم ذهب الى النبى وسمع كل القصة وهو يردد « أشهد انك لرسول الله » فقال له الرسول: « وكنت يا أبا بكر الصديق » وعرف منذ ليلة الاسراء بهــذا اللقب •

=له الراهب : انه يبعث نبى من قومك تكون وزيره فى حياته وخليفته بعد موته ، فأسر أبو بكر ذلك فى نفسه .

(1) كان أبو بكر أول من اسلم من الرجال ، وخديجة أول من اسلم من النساء ، وعلى أول من اسلم من الصبيان ، وزيد بن حارثة أول من اسلم من الموالى وهو الذى تبناه النبى عليه السلام.

• وسمى بالعتيق لأن النبى عليه الصلاة والسلام بشره بالعتق من النار ، وقد كان الى جوار رسول الله فى كل خطوة يخطوها ، وكان مستشاره الأمين فى كل عمل وشاركه فى الجهاد ، وتعرض لما تعرض له من أخطار جسام ، ولقد تحمل كثيرا من الأذى مع رسول الله حتى اغمى عليه ذات يوم ، فلما أفاق قال « ما فعل رسول الله ؟ » فلم يكن يعنيه الا رسول الله .

• وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا » ، فلما أذن الله لرسوله بالهجرة بكى أبو بكر لشدة فرحه ، وتجلى حبه للرسول خلال هذه الرحلة الميمونة ، فكان يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، وثالثة عن يمينه ، ورابعة عن يساره ، فسأله النبى عن السبب فيقول أبو بكر « يا رسول الله كنت أذكر الرصد (أى تربص الأعداء) فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك .

• وحاول بعض مشركى قريش قتل رسول الله ذات يوم فاعترضهم أبو بكر وهو يقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وتقطعت فى ذلك اليوم احدى ضفيرتى أبى بكر .

• وكان عليه السلام يقول « ما احد اعظم عندى يدا من أبى بكر واسانى بنفسه وماله وزوجنى ابنته » .

• وكان نفر من المهاجرين والأنصار يذكرون فضائل أهل الفضل عند باب النبى عليه السلام فسمعهم وخرج اليهم قائلا « لا تقدموا أحدا على أبى بكر فانه أفضلكم فى الدنيا والآخرة » .

• وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد جبل أحد فتبعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم الجبل ، فوكزه بقدمه قائلا « أثبت أحد فما عليك الا نبى وصديق وشهيدان » .

• وسئل رسول الله ذات يوم من أحب الناس اليك ؟ قال : عائشة . قالوا : انما نعنى من الرجال . قال : أبوها .

• وكان عليه الصلاة والسلام يؤثره بكثير من فيض علمه ، قال له ذات يوم : علمنى يا رسول الله دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : قل « اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم » .

• وكان عليه السلام يندبه لمهام الأمور ، فقد كان أبو بكر أول أمير للحج بعث به النبى وهو فى المدينة فى العام التاسع من الهجرة .

• وقد اختاره النبى للصلاة بالناس عندما ثقل عليه المرض . وفى ذات يوم وجد فى نفسه خفة ، فخرج الى الصلاة ، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر فأشار عليه النبى ألا تبرح ، ثم جلس عن يساره ، فكان أبو بكر يصلى بصلاة النبى ، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر ، ولما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى كان الناس يؤيدون أحقيته بالخلافة قائلين « اختاره رسول الله لديننا فلم لا نختاره لدنيانا » .

خلافته (١١ – ١٣ هـ) :

لما توفى النبى عليه الصلاة والسلام فزع الناس من وقع الخبر وهو المصاب ، وارتجت المدينة وزلزلت قلوب الصحابة ،

ولم يصدق عمر من نعاه اليه ، وصار الناس فى حيرة من أمرهم حتى جاء أبو بكر فتلا عليهم قول الله عز وجل « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فهدأت النفوس واستسلم المسلمون لقضاء الله .

● وبينما هم منهمكون فى تجهيزه ودفن جسمه الطاهر ، اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة[١] لتبادل الرأى فى شأن الخلافة ، فأسرع اليهم أبو بكر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا الأمر قبل تشعب الآراء ، فلما وصلوا الى السقيفة كان الأنصار يبايعون سعد بن عبادة زعيم قبيلة الخزرج ، وكان مريضا لا يكاد يبلغ صوته مسامع الناس ، فكان يتكلم وابنه يبلغ كلامه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « يا معشر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الاسلام ليست لأحد من العرب ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قومه الا قلة ، حتى اذا أراد بكم الفضيلة ، ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان به وبرسوله .. فأنتم أحق بالخلافة » .

ووقف بعض الأنصار موقفا وسطا فقالوا « منا أمير ومنكم أمير » وتدخل بعض الأنصار والمهاجرين بين مؤيد ومعارض ، فقام أبو بكر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « يا أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس اسلاما ، وأكرمهم أحسابا ،

(١) السقيفة : ظلة يجلسون تحتها فى المدينة ، وبنو ساعدة : حى من الأنصار .

وأوسطهم دارا ، وأمسهم رحما برسول الله ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، قال تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان » فأنتم اخواننا فى الدين وأنصارنا على العدو آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر ابن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح » وكان الرأى السائد بين أكثر المسلمين ترشيح أبى بكر للخلافة ، فقام عمر وحسم الخلاف ونادى بصوته الجهورى « ابسط يدك يا أبا بكر » وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول « أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثانى اثنين ، واختارك للصلاة بالناس عندما ثقل عليه المرض ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر » وتتابع الناس فى بيعة أبى بكر بالسقيفة ، وتم كل ذلك قبل أن يدفن الرسول ، وفى هذا الموقف الذى وقفه عمر وقضى به على أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين يقول الشاعر حافظ ابراهيم :

وموقف لك بعد المصطفى افترقت
فيه الصحابة لما غاب هاديها
بايعت فيه أبا بكر فبايعه
على الخلافة قاصيها ودانيها
واطفئت فتنة لولاك لاستعرت
بين القبائل وانسابت أفاعيها

● وفى اليوم التالى جلس أبو بكر على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ، وتكلم أبو بكر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

« أما بعد أيها الناس فانى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له .. أطيعونى ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

● وتولى أبو بكر الخلافة سنة ١١ هـ وهو يناهز الستين من عمره ، ورغم قصر مدة خلافته التى لم تزد على العامين الا قليلا، فقد تم خلالها كثير من جلائل الأعمال التى أرست قواعد الدولة الاسلامية الكبرى .

سياسته فى الحكم :

كان أبو بكر لا يبرم أمرا بغير مشورة عمر ، وكانت السياستان تكمل احداهما الأخرى ، فبينما كان أبو بكر يميل الى الرفق واللين ، كان عمر يميل الى الشدة والصلابة فى الحق ، ولكل وجهة نظره وكلاهما على حق[1] ، روى أنه جاء اثنان من كبار الصحابة الى أبى بكر وقالا له « ان فى حينا أرضا سبخة لا ينتفع بها ، فان رأيت أن تقطعنا اياها نحرثها ونزرعها لينتفع بهـا المسلمون » فاستشار من حوله فوافقوا ، وكتب لهما كتابا بذلك وقال لهما « اشهدا عمر » ولم يكن حاضرا بين القوم ، فانطلقا

(١) وقد يختلفان فى بعض الأمور الدينية ، سأل رسول الله ابا بكر متى تصلى الوتر ؟ قال : من اول الليل ، وسأل عمر متى تصلى الوتر ؟ قال : آخر الليل فقال لابى بكر : اخذت بالحزم وقال لعمر : اخذت بالعزم .

الى عمر يشهدانه ، فتناول عمر الكتاب ولم يوافق على ما جاء به ، وقال لهما (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل ، وان الله أعز الاسلام فلن أشهد على هذا الكتاب ، فعادا الى أبى بكر وقالا له للوقيعة بينهما « أأنت الخليفة أم عمر ؟ » فقال بكل هدوء « بل هو لو كان شاء » وجاء عمر وهو مغضب وقال لأبى بكر « ما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ » فلم يزل يراجعه حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وقال أبو بكر لعمر « ألم أقل لك حين وليت الخلافة أنك أقوى عليها منى ، ولكنك غلبتنى على أمرى) .

● وكان الصديق يعطى الصحابة والمسلمين نصيبهم من بيت المال بالسوية دون تفريق بين من سبق الى الاسلام ومن أسلم متأخرا ، ولما ولى عمر الخلافة نهج نهجا آخر ، فأعطى السابقين أكثر من المتأخرين قائلا « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وقال ذات يوم لأبى بكر « أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين ، وبين من أسلم عام الفتح خوفا من السيف ؟ » وظل أبو بكر على رأيه حين تولى عمر الخلافة فأخذ بمبدأ التفضيل . وكان أبو بكر يمنح العبيد والنساء حصتهم فى بيت المال ، لأنه فى رأيه رزق أو معاش تجب فيه المساواة بين الناس ، أما الأعمال والأسبقية الى الاسلام فثوابها عند الله .

● وقد آثر أبو بكر أن يستبقى معه فى المدينة كبار الصحابة ، ليستشيرهم فى شئون الحكم ويشركهم معه فى رقابة العمال والولاة ، ورغم مكانة أهل بدر وتقديره لهم ، فانه كره أن يوليهم

عملا حتى لا يعرضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المـال والمتاع ، واعتبر ذلك تدنيسا لهم •

فصاحته وبلاغتـه :

تعتبر خطب أبى بكر ورسائله فى المناسبات المختلفة آية فى البلاغة ورقة التعبير وسلامة المنطق ، وكان يختتم خطبه عادة بقوله « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » ، وكان اذا قال ذلك عرف الناس أنه قد فرغ من خطبته ، ولا يتسع المجال لذكر بعض هذه الخطب ؛ فمنها خطبته يوم وفاة الرسول ، ويوم السقيفة ، ويوم البيعة، وخطبة فى الوعظ والترغيب والترهيب والزهد ، فضـلا عن كتبه لأهل الردة ولولاة الاقاليم وقواد الجيش ووصيته لعائشة ولعمر بن الخطاب فى مرضه الذى توفى فيه ، الى غير ذلك •

● وروى عنه كثير من الحكم البالغة التى جرت مجرى الأمثال كقوله « احرص على الموت توهب لك الحياة • ان البلاء موكل بالمنطق ، الصبر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله • اذا وعظت فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا ، ليس خير بعده النار بخير ، وليس شر بعده الجنة بشر » •

● وكان اذا مدحه مادح قال « اللهم أنت أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرا مما يظنـون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون » •

● وكان يحفظ القرآن كله وتفيض عيناه بالدموع كلما تلاه ، ويقتبس من آياته ما يناسب المقام •

● وكان رضى الله عنه يروى الشعر ويحفظ أمثال العرب ، وقد اقتبست عنه ابنته كثيرا من مأثورات الشعر والخطب •

● وقد امتاز بفصاحة اللسان وقوة الحجة فى كلامه وخطبه الرائعـة •

مآثره ومفاخره فى الاسلام :

كان القتل قد استحر (أى كثر واشتد) فى موقعة اليمـامة بحفظة القرآن ، وخشى عمر أن يستحر القتل بالقراء فى مواقع أخرى فيذهب بعض القرآن بذهاب هؤلاء ، فذهب الى أبى بكر وأشار عليه بجمع القرآن فقال له أبو بكر « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله » فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك ، فاستدعى زيد بن ثابت الذى كان يكتب الوحى لرسول الله وكلفه أن يجمع القرآن ، فقال زيد « والله لو كلفونى نقـل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن » ثم أخذ فى جمعه من صدور القراء ، لا يقبل من رجل نصا الا اذا وجده عند رجل آخر من أصحاب النبى ، كما جمعه من جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود وأكتاف الابل • وكان هذا أول مصحف من القرآن ، وظل عند أبى بكر حتى وفاته ، ثم انتقل الى عمر حتى مقتله ، ثم كان عند حفصة بنته وأم المؤمنين •

● وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أبى بكر فى كتابه الكريم بقوله « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » •

● وكان من أهم مفاخر أبى بكر القضاء على المرتدين بعد وفاة

الرسول ، وكانت حركة الردة قد تفشت فى معظم أنحاء الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة والطائف • وقد أرسل المرتدون وفودهم الى أبى بكر يطلبون اليه أن يعفيهم من الزكاة ، على أن يؤدوا سائر الفرائض ، فقال لهم أبو بكر قولته المأثورة « والله لو منعونى عقالا[١] كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه واستعنت عليهم بالله » ثم تلا قوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وكان عمر مترددا فى قتال المرتدين ، وقال لأبى بكر « كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله » ثم استطرد قائلا « الزم بيتك ومسجدك فانه لا طاقة لك بقتال العرب » وأكد ذلك بقوله « ان رسول الله كان يقاتل معه الملائكة يمده الله بهم ، وقد انقطع ذلك المدد » فقال له أبو بكر : « يا ابن الخطاب رجوت نصرتك فخذلتنى ، أجبار فى الجاهلية وخوار (أى ضعيف) فى الاسلام !! والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » وكان المفروض أن يتجه عمر الى جانب الشدة لما عرف عنه من الصلابة والاقدام ، وأن يتجه أبو بكر الى جانب اللين لما عرف عنه من التريث والتؤده ، فجاء اختلافهما فى الرأى على غير ما كان يظن •

• وكان أبو بكر على حق فى هذا الاقدام ، وبعد أن تم له النصر على المرتدين جاءه عمر وقال له « أنا فداؤك ، لولاك لهلكنا » وأخذ يقبل رأسه •

(١) العقال : الحبل الذى يربط به البعير ، وفى رواية لو منعونى عناقا والعناق : الانثى من ولد المعز •

ويقول الأستاذ العقاد عن هذا الموقف : « وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعا على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل » •

• والحق أن القضاء على المرتدين ومدعى النبوة[١] يعتبر فتحا عظيما فى الاسلام أمد الله به أبا بكر ، فاستطاع أن يخضع هذه الجزيرة الهائجة المائجة التى لم تخضع لأحد والتى اعجزت الفاتحين منذ أقدم العصور • وقد أعد لها أبو بكر احدى عشرة كتيبة وجهها لقتال المرتدين فى أنحاء الجزيرة العربية ، واختار لها أشهر القادة ورسم لهم الخطط وزودهم بتعليماته ، كما أمرهم أن يبعثوا الى زعماء المرتدين برسائل أعدها لهم قبل مهاجمتهم لعلهم يثوبون الى رشدهم ، وقد نجحت هذه الرسائل فى اقناع بعض المرتدين بالرجوع الى الاسلام طائعين أو كارهين ، واستمر آخرون فى ضلالهم وعنادهم حتى تم القضاء عليهم •

جوده وسخاؤه :

كان أبو بكر يشتغل بالتجارة فى الجاهلية ، وكان يصحب القوافل الى الشام ويربح المال الوفير حتى بلغ ما ادخره من المال أربعين ألف درهم ، وكان ينفق عن سعة بعد اسلامه حتى قيل له ذات يوم : « ماذا تركت لأولادك ؟ » فيقول : « تركت لهم الله ورسوله » وكان يشترى الأكسية والأطعمة

(١) كان من بين هؤلاء مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد ، وامرأة من تميم تسمى : سجاح .

ويوزعها على الفقراء ، كما كان يشترى الموالى والعبيد الذين يسامون سوء العذاب فى سبيل الله ثم يعتقهم ، ومن هـؤلاء بلال بن رباح مؤذن الرسول[1] وكان يهيىء الوسائل لمن يريد الهجرة من المسلمين ، ولم يبق من ماله وقت الهجرة الا خمسة الاف درهم حملها معه . وروى عن اسماء بنت أبى بكر أنها قالت « دخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره وقال لقد هاجر أبوكم بعد أن فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه ، فقلت له : كلا يا أبت ، انه ترك لنا خيرا كثيرا . وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة بالبيت وغطتها بثوب وأخذت بيده فلما تحسسها اطمأن قلبـه .

تواضـعه :

كان لأبى بكر أغنام يرعاها بنفسه ، وكان يعاون جاراته فى المرعى فى حلب أغنامهن ، وظل يفعل ذلك كلما سمح له وقتـه ويقول « أرجو الا يغيرنى ما دخلت فيه » يقصد بذلك الا تشغله شئون الخلافة عن حلب أغنام الحى .

● وقيل للصديق ذات يوم : يا خليفة الله فى أرضه ، فأنكر ذلك على القائل وقال : انما أنا خليفة رسول الله .

● وكان لين الجانب ، لم يتعال على أحد قط فى جاهليتـه

---

(1) كان سيده (امية بن خلف) يطرحه على ظهره فى صحراء مكة اذا حميت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتوضع فوقه ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيقول : أحد أحد ، ومر به ابو بكر فرآه على هذا الحال ، فعرض على سيده أن يأخذه ويعطيه غلاما أقوى منه فقبل اميه ، فأخذه ابو بكر واعتقه .

أو اسلامه ، وكان فى خلافته أكثر تواضعا منه قبل أن يتـولى الخلافة ، وكان اذا مدحه مادح قال : « اللهم أنت أعلم منى بنفسى » .

● ودخل يوما على عائشة وهى تمشى وتنظر باعجاب الى ذيل ثوبها المزركش ، فقال لها : أما علمت أن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة ، وما زال بها حتى نزعتها ، وكان ينادى بنته عائشـة : (يا أم المؤمنين) .

● **ورئى ذات يوم فى سوق من أسواق المدينة ، على كتفيـه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له : فضحتنا بين المهـاجرين والأنصار فقال لهم « لا والله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع والزهد فى هذه الدنيا » .**

● **وقد وفد عليه ملك حمير وهو يرتدى الثياب المزركشة بالذهب واللؤلؤ ، ورأى خليفة رسول الله يمشى فى الأسواق ويلبس العباءة والشملة ، فخجل ان يقابله بهذه الملابس فخلعها اقتداء به وهانت الدنيا فى عينيه ! رحم الله ابا بكر فقد كان عظيما فى تواضعه ، متواضعا فى عظمته .**

زهـده وورعه :

كان رضى الله عنه يقيم خارج المدينة فى بيت اتخذه من الشعر ، فلما ولى الخلافة ظل فى هذا البيت ستة أشهر يهبط الى المدينة كل يوم ينظر فى أمور الناس ويصلى بهم ، فاذا حان المساء عاد الى أهله .

• وقد كره أن يعيش فى بيته خيرا من المعيشة التى عاشها النبى عليه الصلاة والسلام ؛ ولم يكن لزوجات أبى بكر من شكوى غير قلة النفقة والقصد فى المعيشة .

• وروى أنه بعد أن نزل عن كل ماله الى بيت مال المسلمين لقيه عمر وهو ذاهب الى السوق للتجارة يحمل على عاتقه أثواب القماش فقال له : ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين ؟ فقال له أبو بكر : فمن أين أطعم عيالى ؟ فأشار عليه عمر أن يذهب الى أبى عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله ، ففرض له مائتين وخمسين دينارا سنويا زيدت بعد ذلك الى ثلاثمائة دينار حتى يتفرغ لأعباء الخلافة ، وأسرع أبو بكر الى المسجد ودعا الناس وقال « **أيها الناس ان رزقى كان مائتين وخمسين دينارا ، وأن عمر وعليا كملا له ثلاثمائة دينار فهل رضيتم ؟ قال المهاجرون : اللهم قد رضينا .**

• ولم يطق رضى الله عنه أن تستقر فى جوفه لقمة يشك فى مصدرها ، وأدخل اصبعه فى حلقه وجعل يتقيأ حتى خرجت اللقمة ، فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج الا مع نفسى لأخرجتها .

وفاته :

بعد عامين وثلاثة أشهر من خلافة أبى بكر مرض مرض الوفاة ؛ فأوصى عائشة أن يكفن فى ثوبين قديمين كان يصلى فيهما ؛ فأشارت عليه بأن يكفن فى كفن جديد ، فقال : « ان الحى أحوج الى الجديد من الميت ، وانما الكفن للصديد والتراب » ،

وأمر ان يحصى ما أخذه من بيت المال فيرد اليه من ماله . **ولما رأته عائشة وهو يحتضر تمثلت بقول الشاعر القديم :**

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها بخ بخ يا أم المؤمنين هلا تلوت قول الله عز وجل : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

ثم أخذ فى املاء وصيته وهو على فراش الموت وعثمان الى جواره يملى عليه عهده الى المسلمين ، فلما بلغ قوله : « انى استخلفت عليكم » أخذته غشية فخشى عثمان أن تكون غشية الموت ، فكتب من عند نفسه « عمر بن الخطاب » فلما أفاق أقره على ما كتب وقال له « جزاك الله عن الاسلام خيرا » ثم مضى فى الاملاء حتى أتم عهده . وكان اختيار عمر أجل خدمة أداها أبو بكر للمسلمين الذين كانوا فى أشد الحاجة الى رجل قوى شديد فى الحق كعمر قادر على أن ينهض بهذه الأعباء الثقال . واتفقت الروايات على أن أبا بكر أوصى امرأته أسماء أن تغسله اذا مات ، فهى أول امرأة غسلت زوجها فى الاسلام ، كما أوصى أن يدفن الى جنب رسول الله ، وحمل على السرير الذى حمل عليه رسول الله وهو سرير عائشة ، ولما حفر له وضع رأسه عند كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . **وقام الامام على يرثيه ، وكان مما قاله : « رحمك الله يا أبا بكر كنت أول الناس اسلاما وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا ، وأقربهم الى رسول الله وأشبههم به خلقا وخلقا وهديا وسمتا ..**

صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا .. كنت كما قال الرسول فى حقك : ضعيفا فى بدنك قويا فى دينك متواضعا فى نفسك .. فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك »

● ووقفت عائشة على قبره وقالت : « نضر الله وجهك وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلا باعراضك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها .. انا لله وانا اليه راجعون .. » .

الفصل الثانى

عمر بن الخطاب

اسلامه :

لقد كان عمر فى أول أمره خصما عنيدا وعدوا لدودا للاسلام والمسلمين ، ثم أصبح فى يوم وليلة وليا حميما ومدافعا قويا عن الاسلام والمسلمين .

ويقول الرواة انه خرج ثائرا ذات يوم متقلدا سيفه يريد قتل محمد ، فقابله رجل من قريش وأخبره بأن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما وعيره بذلك ، فاندفع الى مسكنها ووجد عندها نفرا من المسلمين يقرءون القرآن واعترضه زوجها ، فأرادت أن تحول بينه وبين زوجها ، فلطمها لطمة أدمت وجهها ، ولما رأى الدم يسيل على وجهها ندم على ما صنع وطلب اليها أن تريه الصحيفة التى كانوا يقرءون فيها ، وكان فيها من أول سورة طه حتى قوله تعالى : « اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » فلم يكد يقرؤها حتى رق قلبه وانشرح صدره للاسلام ، وقال دلونى على محمد ، وكان خباب الذى يقرئهم القرآن مختبئا ، فلما سمع مقالته خرج من مخبئه وهو

يقول : « أبشر يا عمر فانى أرجو أن يكون الله قد استجاب لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم حين قال : اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام — (الذى سماه النبى والمسلمون أبا جهل) — ثم قصد عمر الدار التى كان بها النبى وهى دار الأرقم بن أبى الأرقم ؛ ولما دخل عليه نطق بالشهادة وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال بلى ، قال عمر : فلم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن وما لبث أن خرج المسلمون فى صفين : عمر فى مقدمة الأول ، وحمزة فى مقدمة الآخر ، ودخلوا المسجد وقريش تنظر ولا يجرؤ أحد منهم أن يقترب من صفين فيهما هذان ، وسماه النبى يومئذ « بالفاروق » لما كان عليه من سداد الرأى وشدة البأس والتفريق بين الحق والباطل غير هياب ولا وجل ، وفى ذلك يقول حافظ ابراهيم فى عمريته :

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها
بنعمة الله حصنا من أعاديها

خرجت تبغى أذاها فى محمدها
وللحنيفة جبار يواليها

سمعت سورة طه من مرتلها
فزلزلت نية قد كنت تنويها

ويوم اسلمت عن الحق وارتفعت
عن كاهل الدين اثقال يعانيها

وصاح فيه بلال صيحة خشعت
لها القلوب ولبت أمر باريها

● أسلم عمر وسنه ست وعشرون سنة فى السنة السادسة من البعثة ، وأقام بمكة — بعد اسلامه — سبع سنين يدافع عن المسلمين .

مكانته عند الرسول :

كان النبى عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر لصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ؛ وكان النبى يقول « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وكان يحمد له مواقفه دفاعا عن الاسلام والجهر بالدعوة اليه وتحدى المشركين ؛ وكان عبد الله بن مسعود يقول : «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» .

● وكان النبى يحمد له غيرته على النساء ، وفى هذا يقول الرسول : « ان الله غيور يحب الغيور وان عمر لغيور » وهو الذى أشار على النبى بحجاب أمهات المؤمنين .

● وكان له شرف المصاهرة مع النبى الذى تزوج ابنته حفصة ، وكان حريصا أشد الحرص على أن يتزوج بامرأة ذات قرابة للرسول ليشرف بهذا النسب ، فوقع اختياره على أم كلثوم بنت على بن أبى طالب .

● وقد استأذن عمر النبى فى العمرة ماشيا ، فأذن له النبى وقال له « أشركنا يا أخى فى صالح دعائك ولا تنسانا » فكان عمر يقول « لقد قال لى النبى صلى الله عليه وسلم كلمة أحب الى من الدنيا وما فيها (لقوله : يا أخى) »

● وقد بادله حبا بحب ووفاء بوفاء ؛ وقد أبى عليه حبه ووفاؤه للنبى عليه الصلاة والسلام أن يعيش خيرا مما عاش ،

واستمر وفاء عمر لآل النبى بعد وفاته ، وروى أنه كسا بعض أصحاب النبى ، ولم يكن فى الأكسية ما يصلح للحسن والحسين، فأتى لهما من اليمن بكسوة تليق بمقامهما ، وقال حين رآها « الآن طابت نفسى » .

● ولما انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى ، لم يصدق عمر من نعاه اليه وقال : « انما مثله كمثل موسى بن عمران غاب عن قومه أربعين ليلة ثم عاد اليهم » ولا يتحدث أحد بموته الا ضربته بسيفى هذا ، وفى ذلك يقول حافظ ابراهيم :

تصيح : من قال نفس المصطفى قبضت
علوت هامته بالسيف أبريها

أنساك حبك طه انه بشر
يجرى عليه شئون الكون مجريها

نسيت فى حق طه آية نزلت
وقد يذكر بالآيات[1] ناسيها

● وكان عمر يقدر وفاء بلال وامتناعه عن الأذان بعد وفاة النبى ، ولكنه دعاه للأذان تلبية لاقتراح بعض أجلاء الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد افتتاحها ، فاستمتع المسلمون بسماع صوت بلال مؤذن الرسول بعد انقطاعه لوفاته عليه السلام .

وعادت بهم الذكريات الى تلك الأيام الخالدة التى عاشها رسول الله عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم .

(١) اشارة الى قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ... » .

خلافته (١٣ — ٢٣ هـ) :

حين اشتد المرض بأبى بكر فكر فى استشارة أولى الرأى من أصحابه . ولما استوثق من رأيهم ، رشح عمر للخلافة نظرا لقوة شخصيته وسداد رأيه وحزمه وعزمه ، وكتب أبو بكر وصيته التى املاها على عثمان وقال فيها : **« بسم الله الرحمن الرحيم .. استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا، فان يعدل فذلك ظنى به ورجائى فيه ، وان كان غير ذلك فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ولا علم لى بالغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »** .

● وروى أن أول ما قاله عمر عندما صعد المنبر **« اللهم انى شديد فلينى ، وانى ضعيف فقونى ، وانى بخيل فسخنى »** وكاد يحس احساسا قويا بأن الله امتحنه بالخلافة ، وأعبائها الثقال ، والمشاكل التى لا أول لها ولا آخر لاسيما لمن كان ذا ضمير حى يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة ، وقد تجلى هذا الشعور حين قال للناس من بين كلامه « .. ان الله ابتلانى بكم وابتلاكم بى .. » .

● وطالت أيام خلافته حتى بلغت عشر سنين وستة أشهر ، وفى عهده اتسعت الفتوحات ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانضوى تحت لواء الاسلام أمم وبلاد مختلفة الأجناس واللغات، متباينة الاخلاق والعادات ، وانهالت على المسلمين الغنائم من كل جانب ، وفتحت لهم كنوز الأكاسرة والقياصرة . **فهو يعتبر بحق المؤسس الأول للدولة الاسلامية ، أسسها على العدل والايمان ، ولم يؤسسها على البغى والصولجان .**

سياسته مع ولاة الأقاليم :

كان لا يولى منهم أحـدا الا كتب ماله وكل ما يمتلكه قبل أن يتسلم عمله ، وما كاد يصل الى علمه أن أحد الولاة قد أثرى حتى يستدعيه ويطبق عليه المبدأ الذى عرف فى العهد الحديث (من أين لك هذا ؟) فاذا ثبت على الوالى سوء التصرف فى بيت المـال صادر المال الذى ظفر به أو قاسمه فيما زاد عن كسبه المعقول .

● وقـد روى أنه شاطر سعد بن أبى وقاص ماله رغم أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد جيوش المسلمين فى فارس ، والمسـتجاب الدعـوة كما أخبر رسول الله ، فلما شاطره عمر ماله ، قال له سعد : لقد هممت .. قال له عمر : بأن تدعـو على ؟ قال : نعم . فقـال عمـر : اذا لا تجدنى بدعاء ربى شقيا ، ولم يحفل بما قاله ما دام على حق .

● وكان اذا خرج الى الحج أمر ولاته أن يوافوه فى كل موسم على رأس من يحج من اقليمه ، فيسأل الولاة عن رعيتهم ، ويسأل الرعية عن ولاتهم ، فجعل موسم الحج موسما لمراجعة الولاة ومحاسبتهم .

● وفضلا عن ذلك فقد عين قضاة للأقاليم يطبقون أحـكام الدين وليس لأحد عليهم سلطان ، ولا يخضعون للولاة فى شىء .

● وكان يرسل عماله وأمناءه من حين لآخر لتتبع أمور الولاة ، وكان يقول فى أواخر أيام خلافته « لو عشت لقضيت فى كل مصر شهرين حتى أرى كيف يعمل الولاة » ولكن الموت أعجله عن تحقيق أمنيته .

● وكان يأمر الولاة اذا عادوا أن يخرجوا نهارا حتى يمكن الاطلاع على ما يحملونه معهم فى عودتهم ، وكان يلجأ الى الحيلة ليكشف عن الخبايا التى تريبه ؛ فمن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية أمير الشام ، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوده فى عودته بمال ، فأنكر أبو سفيان ، فمد عمر يده الى خاتم فى يده فأخذه وبعثه الى زوجه (هنـد) وأمر الرسول أن يقول لها عن لسان زوجها أن تبعث بالخرجين اللذين جاء بهما من الشام ، فما لبث أن عاد الرسول بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم أرسلها عمر الى بيت المـال .

● وقد يؤاخذ الوالى بوزر أولاده وذوى قرابته اذا وقع فى نفسه أنهم يعتدون على الناس اعتمادا على ما للولاية من سلطان وجاه ولا ينهاهم الوالى .

● وكان ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس الحـكم ، وكتب الى عمرو بن العاص « بلغنى أنك تتكىء فى مجلسك ، فان جلست فكن كسائر الناس ولا تتكىء » .

● وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة ؛ كما كان يزودهم بالنصائح والوصايا ، ومن بين أقواله للوالى « **افتح بابك للرعية ، وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا ، واعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من النـاس** » .

● وكان يحرم على الولاة التزوج من الفارسيات أو غيرهن من نساء البلاد التابعة ؛ لأنه علم بثاقب فكره ما للزوجة من أثر فى زوجها ، وما قد تطلع عليه من أسرار تضر بمصالح

الدولة ، وقد أخذت الدول الحديثة بهذا المبدأ حيث تحرم على السفراء التزوج من الأجنبيات .

● وكان يتطلب من الولاة معرفة مواقع البلاد التي يتولون أمرها ، وروى أنه استقدم يوما عمار بن ياسر أمير الكوفة وجعل يسأله عن المواقع والبلاد المحيطة بالكوفة فلم يعرفها فعزله .

● وكان يدقق فى اختيار الولاة ويحرص على أن يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وقال عبد الله بن عمر : سمعت عمر بن الخطاب يقول : من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

سياسته الخارجية :

فى مدة خلافته التى بلغت عشر سنوات وستة أشهر فتحت بلاد فارس وتمزقت أوصالها ؛ وهكذا حقق الله دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بأن يمزق الله دولة الفرس كما مزق ملكها كسرى رسالة النبى التى أرسلها اليه يدعوه الى الاسلام . وجىء الى عمر بتاج كسرى فأثنى على حامل التاج لأمانته ، وكان على بن أبى طالب حاضرا فقال : « ان القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا » ، كما فتحت بلاد الكوفة والبصرة والموصل والبحرين والشام وفلسطين واليمن ومصر وبرقة ، ولم يكن الفتح فى عهده فتح قهر وجباية وانما كان فتح اصلاح وهداية . ومع هذا فكان عمر أشقى الناس بهذه الفتوحات وبالأموال التى كانت تغدق عليه من الأقاليم . وكان نهاره منغصا وليله مؤرقا يسائل نفسه لماذا صرف الله هذا كله عن رسول الله

وخليفته أبى بكر وأتاحه لعمر . وكانت الغنائم تقسم الى أخماس ، توزع على الجنود أربعة أخماس منها بنفس النظام الذى شرع للمسلمين فى عهد رسول الله ، وكان الخمس الباقى يرسل الى عمر ليوضع فى بيت المال لانفاقه فى مصارفه الشرعية .

● وقد وضع عمر نظاما رائعا لتنظيم المناوبة بين الجيوش المستقرة فى الأمصار بحيث لا يغيب الجندى عن أهله أكثر من ستة أشهر .

● وقد أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد التى فتحها المسلمون . وحظر على الفاتحين أن يتملكوها حتى تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم .

سياسته الداخلية :

لم يشهد العالم المتحضر نظاما سياسيا فى الداخل والخارج يحقق العدل والمساواة والحرص على مصلحة الرعية على النهج الذى وضعه عمر رغم ما مرت به الانسانية من تجارب وما بلغته من رقى ، ويكفى أنه ابتكر نظما فى الحكم لم يسبق لها مثيل تتلخص فيما يلى :

١ — انشأ دواوين الأوقاف الخيرية والأحصاء والمحاسبة ، ووكل الأعمال فى معظم هذه الدواوين الى أبناء البلاد يزاولونها بلغتهم ، وأحصى كل نفس فى الدولة الاسلامية ، وعرفت حصة كل واحد منهم فى بيت مال المسلمين ، وقسم الناس الى مراتب فى مقدمتهم الذين شهدوا موقعة بدر ، ويليهم الذين شهدوا

صلح « الحديبية » ثم الذين اشتركوا فى حرب الردة ، ويأتى بعد ذلك الذين اشتركوا فى معارك الروم والفرس .

٢ ــ انشأ ديوان الخراج ، ويشبه فى وقتنا الحاضر مصلحة الضرائب ، وفرض الجزية على القادرين من أهل الذمة ، وأعفى منها النساء والأطفال والشيوخ والفقراء وذوى العاهات والرهبان .

٣ ــ انشأ نظام القضاء وعممه فى الأمصار ، ولم يعين بالمدينة فى أول الأمر قاضيا لها ، وكان هو الذى يفصل بين المتخاصمين

٤ ــ أدخل نظام البريد ، وأنشأ مصنعا لسك النقود ، وأقام دارا لحبس المخالفين لأحكام الدين ممن لا تنطبق عليهم الحدود الشرعية .

٥ ــ كان يفكر جديا فى علاج مشكلة الفقر وتصحيح النظام الاقتصادى للبلاد ، وكان يقول : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء » ولم يكن ليرضيه أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويتركوا العمل واتخاذ المهنة ، بل كان يقول للفقراء فى خطبه : **« يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالا على المسلمين »** .

٦ ــ أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الجوعى الذين لا يجدون الطعام .

٧ ــ اتبع سياسة التعمير لم تقتصر على الجزيرة العربية بل تعدتها الى الخارج ، **وهو الذى أشار على عمرو بن العاص**

بحفر خليج بين النيل والبحر الأحمر (وكان يسمى وقتئذ بحر القلزم) لسهولة الاتصال بين مصر وبلاد العرب ، وكان لهذه القناة الفضل الأكبر فى سرعة أرسال المؤن اللازمة لجزيرة العرب فى عام المجاعة .

٨ ــ وهو أول من أدخل نظام الحسبة فى الأسواق للكشف عن أعمال الغش فى الكيل والميزان وغلاء الأسعار .

● وكان يستبقى كبار الصحابة الى جواره ليستعين بهم ، وقد جمع منهم مجلس المشورة ، وكان لا يبرم أمرا الا بعد الاستئناس برأيهم ، وقد جنبهم ولاية الأقاليم ليحول بينهم وبين مغريات الحياة ، وخشى عليهم الفتنة فأسكنهم المدينة لا يخرجون منها الا باذنه ، كما خشى أن يفتتن الناس بهم .

● وهو أول من قرر مبدأ الشورى فى شئون الحكم وفى انتخاب الخليفة[1] من بعده وفى ذلك يقول حافظ :

وما استبد برأى فى حكومته

ان الحكومة تغرى مستبديها

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به

رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

---

(١) جعل عمر الخلافة الى ستة نفر فلم يل رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه .

حرصه البالغ على مصلحة الرعية :

والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى ، فمن ذلك أنه حدثت مجاعة فى المدينة فى السنة الثامنة من الهجرة ، استمرت تسعة أشهر ، وسمى هذا العام (عام الرمادة) لأن الأرض اسودت حتى صارت كالرماد لانقطاع المطر ، وقيل لأن وجوه الناس أصبحت فى لون الرماد من شدة الجوع حتى اضطروا أن يأكلوا لحم الميتة ، فجاع عمر كما جاع الناس ، وكان لا يذوق النوم الا غرارا ، وكان يحمل ما يجده من الطعام على ظهره مع الحاملين له الى الأعراب لا سيما أهل البادية ، وكان يوزع صدقات كل حى على فقرائه حتى يستغنوا عن السؤال ، فاذا زادت الصدقات عن حاجتهم انفقها فى مصارفها الشرعية التى بينها القرآن الكريم ، وكان يشدد العقوبة على الذين يخفون الطعام أو يحتكرونه .

● وكان يقول : نطعم ما أطاق بيت المال اطعام الناس ، فاذا ضاق بذلك بيت المال ، أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين فشاركوهم فى طعامهم ، فانهم لن يجوعوا على أنصاف بطونهم .

● وكان أشد ما يخشاه أن يجعل الله هلاك أمة محمد على يديه وأثناء خلافته ، وقد أرسل الى عماله يستعجلهم ارسال الطعام والثياب من البلاد التى لم يصبها الجدب . وقد كلف رجالا يستقبلون ما يصل من الطعام الى جزيرة العرب ، وكان يرسل من ينادى فى الناس قائلا : من أراد أن يصيب شيئا من الطعام أو يأخذ حاجته وحاجة أهله فليأت ، وكان له رجال يقومون

بنحر الابل وانضاج اللحم وعمل الثريد الذى يكفى الآلاف من ذوى الحاجة .

● وكان يرى أن المال الذى يحصل عليه من الفىء أو من جباية الجزية والخراج ملك للمسلمين جميعا ، لا يستأثر به فريق دون آخر ، ويعتبر نفسه المسئول عنه شخصيا ، وكان يقول : لو ضل جمل من ابل الصدقة أو أصابه مكروه لخشيت أن يسألنى الله عنه يوم القيامة ، كما كان يقول : لئن عشت لأعطين الراعى فى جبل صنعاء نصيبه من المال .

● وكان من عادته اذا نزلت بالقوم مجاعة الا يأكل داخل بيته ، بل يأخذ طعامه ويأكل معهم حتى لا تحدثهم أنفسهم أن الخليفة يأكل خيرا مما يأكلون ، وفى ذلك يقول حافظ :

ان جاع فى شدة قوم شركتهم
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته
فى الزهد منزلة سبحان موليها

● وكان يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية . وكان اذا نهى الناس عن شىء وحذرهم من العقاب ، جمع أهله وقال لهم : « انى نهيت المسلمين عن كذا .. وحذرتهم العقوبة ، فأنتم أولى بالطاعة ، وان الناس ينظرون اليكم لكانكم منى فاحذروا والا ضاعفت لكم العقاب » ، ورغم شدته على الناس فقد كان على نفسه أشد منه على الناس .

• وبلغ من حرصه على مصلحة المسلمين أنه كان لا يحب أن يسمع كلاما يمس شعورهم أو أن تذاع أسرارهم ، روى أنه استدعى الحطيئة الشاعر المشهور بهجائه ، وأمره أن يكف عن هجاء الناس ، وأجلسه بين يديه ودعا بسلاح وأوهمه أنه سيقطع لسانه ، ففزع الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه ، ولم يطلق سراحه حتى أخذ عليه عهدا ألا يهجو أحدا بعد ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، فما هجا أحدا بعدها وعمر على قيد الحياة .

• قال على بن أبى طالب « رأيت عمر بن الخطاب يسرع على بعير ، فقلت يا أمير المؤمنين : أين تذهب ؟ فقال : بعير شرد من ابل الصدقة فخرجت أطلبه ، فقلت : لقد أذللت الخلفاء من بعدك ، فقال « يا أبا الحسن لا تلمنى ، فوالذى بعث محمدا بالهدى ودين الحق لو أن عناقا (الأنثى من ولد المعز) ضلت بشاطىء الفرات لحوسب عليها عمر يوم القيامة » .

• وقد عرف لأهل الذمة من رعيته حقوقهم ، روى أنه عندما دخل بيت المقدس واستقبله الرهبان والقسيسون ، أبى أن يصلى فى كنيسة القيامة خشية أن يحولها من يأتى بعده الى مسجد ويقولون « هنا صلى عمر » ولكنه صلى فى بقعة صغيرة خارج المسجد تعرف الآن بمسجد عمر ، وقد كتب عهده المشهور الذى **يكفل الحرية التامة والمساواة للجميع ، ويؤمن النصارى على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وجميع كنائسهم فلا تهدم ولا تسكن .**

وقد أجرى الصدقة على شيخ يهودى كفيف البصر وقال : « ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم خذلناه فى شيخوخته » .

• وعندما شعر بدنو أجله أوصى المسلمين خيرا بأهل الذمة ، ولم يخرج أحدا من الذميين من الجزيرة العربية من تكرر منه الغدر والخيانة ، ومن نقض العهد منهم كما فعل بأهل نجران ، فالمصلحة العامة تستلزم اجلاءهم ، لأن الجزيرة العربية حرم الاسلام ، ولا أمان لحرم يسكنه من اتصف بالغدر والخيانة .

حرصه على حقوق المرأة :

كان عمر يدافع عن المرأة ، فلا تظلم لضعفها ، ولا تكره على زواج الرجل القبيح فهى تحب لنفسها ما يحب الرجل لنفسه ، وقد سمع امرأة عربية تنشد شعرا تصف زوجها بأن له رائحة كريهة لا تطيقها ، فأرسل فى طلبه فاذا هو متغير الفم ، فخيره بين خمسمائة درهم وطلاق زوجته فقبل الدراهم وطلقها .

• وجاءته امرأة تشكو زوجها الأشعث الأغبر الذى لا يعنى بمظهره ، تسأله الخلاص منه ، فاستدعى الزوج ووجده كما وصفته ، فأمره أن يستحم ويقلم أظافره ويشذب شعر رأسه ويرتدى أحسن ثيابه ففعل كما أمره ثم عاد ، فقال له ولمن حضر المجلس : « هكذا فاصنعوا لهن ، فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم » .

• وقد قبل شكوى المرأة من زوجها الذى كان يخضب شعره قبل أن يتزوجها لاخفاء الشيب ليوهمها أنه شاب ، فضربه بالدرة قائلا « لقد غررت بالقوم ! » .

• وقد سمع امرأة ذات ليلة تنشد شعرا تشكو فيه بعدها عن زوجها ، وما أصابها من أرق وشوق اليه ، تقول فيه :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه
وأرقني الا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره
لزلزل من هذا السرير جوانبه
ولكن عقلي والحياء يكفنى
وأكرم زوجى أن تنال مراكبه

فسأل عمر عن زوجها ، وعلم أنه فى احدى الغزوات وقد طالت غيبته فأمر الا تطول غيبة الأزواج فى الغزوات .

نزول القرآن مؤيدا لرأيه :

كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته نيفا وعشرين آية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **« ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »** وفى حديث آخر « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (أى ملهمون) فان يك فى أمتى أحد فانه عمر » .

ومن المواقف التى أيده فيها القرآن الكريم :

١ ـ آية الحجاب : فقد كان رضى الله عنه يشير على النبى صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه ، ويصل هذا الى سمع زينب احدى أمهات المسلمين فتقول له : انك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا !! وتخرج احداهن (سودة) ليلا فيعرفها عمر بطول قامتها وبناديها « عرفتك يا سودة » فينزل القرآن مؤيدا لرأيه **« واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب »** .

٢ ـ ولما صلى النبى عليه السلام على عبد الله بن أبى كبير المنافقين يوم وفاته ، أخذ عمر يذكره بمساوئه وأنه لا يستحق أن يصلى عليه أو نطلب له المغفرة ، وكان النبى يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى اسلامه وبلغ من اخلاصه أنه اقترح على النبى قتل أبيه ، فينزل القرآن مؤيدا لرأى عمر « **ولا تصل على أحد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره** » .

٣ ـ كان عمر يشرب الخمر فى الجاهلية ، ولكنه بعد اسلامه أخذ يطالب بتحريمها ويقول « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » حتى نزل قوله تعالى فى سورة المائدة « **انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** » .

٤ ـ وقد أيده القرآن الكريم فى ضرورة الاستئذان قبل الدخول .

٥ ـ وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فى أمر أسرى الحرب عقب غزوة بدر : هل يقتلهم أو يقبل عنهم الفداء ، فتذكر أبو بكر القرابة والرحم وأن الفداء يعود بالنفع على المسلمين فأشار بقبول الفداء . وتذكر عمر قسوة قريش وسوء معاملتهم للنبى : فأشار بضرب أعناقهم ، فقال رسول الله « ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم اذ قال « فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » ومثل عيسى اذ قال « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر كمثل نوح اذ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين

ديارا » وكمثل موسى اذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ونزل القرآن مؤيدا لرأى عمر فى قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن[1] فى الأرض » .

مآثره ومفاخره فى الاسلام :

اليه يرجع الفضل فى اظهار الاسلام بمكة واخراج المسلمين من مخابئهم بعد ان كانوا يستخفون بدينهم ، فليس عجبا أن يقول عبد الله بن مسعود « كان اسلام عمر فتحا ، وهجرته نصرا ، وامارته رحمة » .

● وهو الذى أخذ الناس بقيام رمضان بعد صلاة العشاء وسن لهم صلاة التراويح وجعلها عشرين ركعة ، ولم يقتصر هذا على الرجال وانما سنه للنساء ، وجعل للرجال اماما يصلى بهم ، وجعل للنساء اماما يصلى بهن ، وكتب بذلك الى الآفاق لتكون هذه الصلاة عامة بين المسلمين[2] .

● وكانت الكتب التى ترد الى عمر من عماله وقادته مؤرخة بالشهور التى تكتب فيها دون السنين ؛ فاتخذ عمر العام الذى

---

(١) اثخن فى الارض سار الى الاعداء واوسعهم قتلا .

(٢) . يقول المحدثون ان النبى صلى الله عليه وسلم قام ليلة فى مسجده فى شهر رمضان ، وتسامع الناس بذلك فأسرعوا ليشهدوا معه تلك الصلاة ، وفى الليلة التالية زاد عـددهم حتى اكتظ بهم المسجد ، فلما رأى النبى ذلك لم يخرج فى الليلة التالية بعد صلاة العشاء ، وصلى القيام فى بيته ؛ فلما سئل فى ذلك قال : « خشيت ان تفرض عليكم والا تطيقوا ذلك » .

هاجر فيه النبى من مكة الى المدينة بدءا للتاريخ نظرا لما كان للهجرة من اثر بالغ فى انتشار الدعوة الاسلامية ، بعد أن استشار المسلمين فى ذلك .

● ولما كثر عدد القتلى من حفاظ القرآن فى موقعة اليمامة ، أشار عمر على أبى بكر بجمع القرآن . فكلف زيد بن ثابت بذلك ، فظل يتتبع آى القرآن ويجمعها من جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام وصدور الرجال كما ورد فى سيرة أبى بكر ؛ وظلت الصحف فى رعاية أبى بكر ، ثم انتقلت بعده الى رعاية عمر ، ولما شعر باقتراب أجله أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين .

● وقد امتاز عمر بصفاء النفس ، وكانت له شفافية روحية تخرق الحجب ، روى أنه كان يخطب فى المدينة خطبة الجمعة ، فالتفت ونادى « يا سارية الجبل الجبل » فلم يفهم الحاضرون ما الذى يقصده ، فلما فرغ من صلاته سأله «على» عن مراده فقال له عمر « وقع فى قلبى أن المشركين يحاولون تطويق جيش المسلمين الذى كان يقوده « سارية » فناديته ليحتمى بالجبل قبل وصول المشركين » . وجاء البشير بعد شهر من هذا النداء فذكروا أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وفى تلك الساعة صوتا يشبه صوت عمر يقول « يا سارية الجبل الجبل » فاحتمينا بالجبل ففتح الله علينا ، ولا شك أن بلوغ صوته من الكرامات التى يكرم الله بها عباده الصالحين .

قضاؤه وفتاويه :

تولى عمر القضاء بنفسه فى المدينة بعض الوقت ، ولما كثرت عليه أعباء الخلافة عين أبا الدرداء قاضيا للمدينة ، كما عين شريحا بالبصرة ، وأبا موسى الأشعرى بالكوفة ، وعثمان بن قيس بمصر فهو أول من أنشأ وظائف القضاء وتخير لها العدول والأكفاء .

ووصاياه فى شئون القضاء تصلح لجميع الأزمنة ، ومن بينها ما أوصى به أبا موسى الأشعرى وفيها يقول « .. آس بين الناس فى مجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك (أى ظلمك) ولا ييأس ضعيف من عدلك ، والبينة على من ادعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا أو احل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فذلك خير من التمادى فى الباطل .

● وكتب الى احد قضاته يقول « اذا جاءك شيء من كتاب الله فاقض به ، وان جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر الى سنة رسوله ، وان جاءك امر ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فانظر الى ما اجتمع عليه الناس ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فاختر أى الأمرين شئت باجتهادك ، وخير لك أن تتأخر حتى تتدبر الأمر » .

● وكان حازما فى قضائه . روى أن جماعة من علية القوم فى دمشق شربوا الخمر . وقد تحرج أبو عبيدة من عقابهم ، ورفع أمرهم الى الخليفة يستفتيه فى شأنهم ، فأمر أبا عبيدة

أن يستدعيهم ويسألهم على رؤوس الاشهاد سؤالا واحدا لا يزيد ولا ينقص عنه « أحلال أم حرام » فان رأوها حلالا فليضرب أعناقهم لأنهم استحلوا ما حرم الله ، وان رأوها حراما أقام عليهم الحد . وفعل أبو عبيدة كما أمره الخليفة . وقال هؤلاء : انها حرام ، فضرب كل واحد منهم ثمانين جلدة . ثم تابوا بعد ذلك .

● وروى أن امرأة هتفت باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تلقاه فاستدعاه فاذا به على جانب عظيم من الجمال ، فقال عمر : « لا يقيم بالمدينة رجل تهتف به النساء فى خدورها » وزوده بمال وأرسله الى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء وتشغل النساء عنه[1] .

● وكان رضى الله عنه لا تخطىء له فراسة ، روى أنه عثر ذات يوم على فتى قتيل على قارعة الطريق . ولم يستدل على قاتله ، وبعد مضى تسعة أشهر عثر على طفل مولود ملقى فى نفس الموضع ، فسلمه الى احدى النساء لتربيته وأعطاها أجرا لذلك وعلى أن تدله على من يسأل عنه ، فحضرت اليها امرأة وقبلته ، وأظهرت عليه عطفا شديدا ، ولما علم الخليفة بذلك حكم لفراسته أنها أمه ، وأنها هى التى قتلت ذلك الفتى ، فاستدعاها واعترفت بكل شيء وقالت : انه خدعها وسطا عليها ، فعفا عنها لصدقها . وقد ورد فى الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » .

---

(1) قد يرى بعضهم فى هذا التصرف جورا على نصر بن حجاج، ولكن المصلحة العامة مقدمة على اى اعتبار آخر .

• وكان رضى الله عنه رجلا واسع الأفق يقدر الظروف المحيطة بالمجتمع فى فتاويه ، فمع تمسكه بأحكام القرآن والسنة النبوية ، فانه أفتى فى عام الرمادة وهو عام القحط بعدم قطع يد السارق كما أفتى بمنع الأعطيات التى كانت تصرف للمؤلفة قلوبهم ؛ لان الاسلام لم يعد بحاجة الى معونتهم ولا يخاف شرهم ، الى غير ذلك من الفتاوى .

بلاغته وفصاحته وقوة حجته :

كان عمر جهورى الصوت واضح النطق ، وكان ينطق بالحكمة؛ وقد جرت أقواله مجرى الأمثال ومنها قوله **أعقل الناس أعذرهم للناس — لقاء الاخوان جلاء الأحزان — لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا — ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، او عمل للدنيا وترك الآخرة ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن تلك .**

• وكان رضى الله عنه يقدر العمل والعاملين ويقول « لا يقعد أحدهم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

• وقد روى أنه رأى شابا منكسا رأسه يتظاهر بالخشوع فصاح به «ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب، فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه ، فكأنما أظهر للناس نفاقا الى نفاق » .

• وروى أنه لما فشا الطاعون فى الشام ، وكان عمر فى طريقه اليها أشار على أصحابه بالرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفرارا

من قدر الله ؟ فقال عمر : نعم أفر من قدر الله الى قدر الله[1] .

• وقال رجل لعمر بن الخطاب : ان فلانا رجل صدق ، فقال له : هل سافرت معه ؟ قال : لا ، قال : أفكانت بينك وبينه خصومة ؟

قال : لا . قال : هل ائتمنته على شىء ؟ قال : لا فقال عمر : فانت لا تعرفه ، وربما رأيته يرفع رأسه ويخفضها فى المسجد فحكمت عليه .

• وكان يقول للحجر الأسود عند اسلامه « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

وكانت وصاياه للولاة والقضاة وخطبه فى الجمع والأعياد على جانب كبير من روعة الأسلوب ودقة التعبير مع التقريع لمن لاحظ عليه شيئا من الانحراف ، فقد قال لأبى موسى الأشعرى : بلغنى أنك أخترت لنفسك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ما ليس للمسلمين مثلها ، فاياك « يا عبد الله » أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها هم الا السمن ، وانما حتفها فى السمن ، واعلم أن الحاكم اذا زاع زاعت رعيته وأشقى الناس من شقى به الناس . والسلام على من اتبع الهدى » .

---

(١) وهذا مصداق الحديث الشريف « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا منها » .

● وكان رضى الله عنه يحفظ كثيرا من الشعر ، وما قطع أمرا الا تمثل فيه ببيت من الشعر .

هيبته وشخصيته القوية :

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها ، وكان طويل القامة يرى ماشيا كأنه راكب ، شديدا يصرع الأقوياء ، ويروض الفرس بغير ركاب ، وكان جهورى الصوت ، شديد الوطء على الأرض ، يسير كما تسير الجنود .

● روى أن جارية نذرت أن تغنى على الدف أنشودة للرسول اذا عاد منتصرا من احدى غزواته ، فوفت بنذرها ، ولم ينكر عليها الرسول ولا أبو بكر ما تفعل ، ولم يكد يدخل عمر حتى ارتعدت من هيبته وخبأت دفها ، والنبى عليه الصلاة والسلام يبتسم ويقول : « ان الشيطان ليخاف منك يا عمر » ، وفى ذلك يقول حافظ فى عمريته :

والمصطفى وأبو بكر بجانبه ... لا ينكران عليها من أغانيها

حتى اذا لاح عن بعد لها عمر ... خارت قواها وكاد الخوف يرديها

وخبأت دفها فى ثوبها فرقا ... منه وودت لو أن الأرض تطويها

فقال مهبط وحى الله مبتسما ... وفى ابتسامته معنى يواسيها

قد فر شيطانها لما رأى عمرا ... ان الشياطين تخشى بأس مخزيها

● واستأذن عمر على النبى يوما وعنده بعض النساء ، فلما رأينه قمن وغطين وجوههن ، فضحك النبى ، فقال له عمر : « أضحك الله سنك يا رسول الله » ، فقال عليه السلام « عجبت من هؤلاء سمعن صوتك فابتدرن الحجاب » فالتفت اليهم عمر وقال « ويلكن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ؟ » .

● ولقد كان الرسول يقول عنه « والذى نفسى بيده مالقيه الشيطان سالكا فجا (أى طريقا) الا سلك فجا غيره » .

● ولقد تعود عمر أن يحمل درة فى يده يهابها الناس ، وكان لها من الأثر فى نفوسهم ما لم يفعله السيف القاطع ، وفى ذلك يقول حافظ :

أغنت عن المصقول[1] درته ... فكم أخافت غوى النفس عاتيها

● وكان يؤدب الناس بدرته هذه ، لا يفرق بين الصحابة وغيرهم ، وقد ضرب سعد بن أبى وقاص بالدرة حين جلس يوما يقسم بين المسلمين مالا . فأقبل سعد وجعل يزاحم الناس حتى وصل اليه ، فضربه بالدرة وقال : انك أقبلت لأنك لا تهاب سلطان الله فى الأرض ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك

● ورأى ذات يوم أبى بن كعب يمشى مزهوا وخلفه قوم فعلاه بالدرة وقال له : « ان هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع » .

● وكان يحمل الدرة وهو ذاهب الى السوق وينادى التجار أن أوفوا الكيل وزنوا بالقسطاس المستقيم ، كما كان يمنعهم عن اشغال الطريق ببضاعتهم .

(1) المصقول : السيف .

من أجل ذلك هابه الناس حتى لقد كان يقال بعد وفاته : لدرة عمر أهيب من سيف الحجاج .

• وبلغ من شخصيته القوية وأثره البالغ فى نفوس من حوله أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم الفرس والرومان أبطالا كالأسود بفضل ماكان يسدى اليهم من النصح ، وما كانوا يستمعون من أقواله وما يرونه من أفعاله محاولين الاقتداء به ، والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم !!

• ولقيه رجل من قريش وقال له : « هلا لنت لنا ، فقد ملأت قلوبنا مهابة » فسأله عمر : أفى ذلك ظلم ؟ قال : لا . قال عمر : « فزادنى الله مهابة فى صدوركم » .

• ومع هيبة عمر ورهبة الناس له ، فقد كان كيسا رقيقا ، يأخذ الناس بالحسنى ، ويعالج الأمور بالرفق والحزم ويعفو عن المذنب اذا صدقت توبته ، وكان يقول « اذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه » .

صلابته فى الحق :

كان رضى الله عنه لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والأمثلة على ذلك لا تدخل تحت حصر .

ففى يوم « الحديبية » بايع المسلمون النبى عليه السلام تحت شجرة أطلق عليها : شجرة الرضوان ، وقد رأى عمر أن المسلمين يتبركون بهـا ويصلون فى ظلهـا ، فخشى أن يتحول تكريمهم لها الى معنى من معانى الوثنية ، فأمر بقطعها .

• وروى أن النبى عليه الصلاة والسلام رخص لعبد الرحمن ابن عوف فى لبس الحرير لحكة (مرض جلدى) أصابته . فأقبل عبد الرحمن ذات يوم على عمر ومعه أحد أبنائه يلبس قميصا من حرير ، فلم يكد عمر يراه حتى أدخل يده فى جيب القميص وشقه الى اسفله : فقال له عبد الرحمن : ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص لى فى لبس الحرير ؟ قال عمر : بلى ، لشكوى شكوتها ، أما لبنيك فلا .

• وكان يتحرج من أن يرى لأولاده ابلا سمانا تغشى المراعى مخافة أن يعنى بها الناس فى مراعيهم ، لأنها ابل أبناء أمير المؤمنين ، وكان لابنه عبد الله بعض الابل لاحظ عليها بعض السمنة ، فأمر بردها الى بيت المال وفى ذلك يقول حافظ :

قد استعان بجاهى فى تجارته
وبات باسم أبى حفص ينميها
ردوا النياق لبيت المال ان له
حق الزيادة فيها قبل شاريها

• وحضر بباب عمر جماعة من أشراف قريش من بينهم سهيل ابن عمرو خطيب قريش ، وأبو سفيان الذى قال النبى بشأنه يوم فتح مكة : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكان معهم نفر من الموالى والعبيد الذين شهدوا موقعة بدر ، منهم صهيب وسلمان وبلال وعمار ، فأذن لهم بالدخول ، وترك السادة والأشراف . فقال أبو سفيان : لم أر مثل هذا اليوم ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! فقال له سهيل وكان رجلا

عاقلا : ان هؤلاء دعـوا ودعينـا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولقـد حشدتموهم على باب عمر ، فان ما أعد لهم فى الجنة أكثر » « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

شجاعته :

كان عمر المثل الأعلى فى شجاعته فى الجاهلية والاسلام ، وكان يصارع فى المواسم ، ويسابق فى ركوب الخيل ويمتطى ظهرها بغير ركاب ، وكان يكتب الى الأمصار « علموا أولادكم الرماية والسباحة والفروسية » .

• وقد وصفته احدى النساء بقولها انه « اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع » .

• وقصة اسلامه معروفة : قال على بن أبى طالب : « ماعلمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا عدا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه واتجه نحو الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم صلى فى مقام ابراهيم ، ونادى بأعلى صوته متحديا قريشا « من أراد أن تثكله أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » . فلم يجرؤ أحد من المشركين أن يتصدى له .

• وقد كناه النبى صلى الله عليه وسلم « أبا حفص » بعد أن انتصر المسلمون فى غزوة بدر (الحفص الأسد) .

• وقد أخذ على خالد بن الوليد ـ سيف الاسلام وبطل

الجزيرة العربية والشام ـ بعض التصرفات[١] ، فأشار على أبى بكر باستدعائه ، وكان عمر شديدا يحب تعجيل العقوبة ، بينما كان أبو بكر يميل الى الأناة وعدم التسرع ، ودخل خالد المسجد مزهوا بالنصر الذى أحرزه ، واضعا فى عمامته بعض السهام ، فقام عمر ونزعها من عمامته وحطمها ، وطلب من أبى بكر أن يعزله من قيادة الجيش . فقال له أبو بكر « لم أكن لأغمد سيفا سله الله على الكافرين » وبينما كان خالد يقود جيوش المسلمين الظافرة فى فتح الشام أثناء حصار دمشق ، اذ جاء البريد من المدينة ينعى أبا بكر ويخبر بتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، كما جاء فى البريد أمر بعزل خالد واسناد امارة الجيش الى أبى عبيدة بن الجراح ، فكتم أبو عبيدة الأمر عن خالد حتى تم النصر للمسلمين ، ولما بلغ خالد الأمر بالعزل تقبله عن طيب خاطر ، وفى ذلك يقول حافظ :

أتـاه أمـر أبى حفص فقبلـه
كما يقبـل آى القرآن تاليهـا
واستقبل العزل فى ابان سطوته
ومجـده مستريح النفس هاديهـا
ألقى القياد الى الجـراح ممتثلا
وعزة النفس لم تجرح حواشيها

• ويروى أن عمر استدعى خالدا بعد عزله وقال له « ماعزلتك

(١) يروى أن سبب غضبه عليه أنه قتل مالك بن نويرة فى ميدان القتال وتزوج بامرأته ، وهو أمر تكرهه العرب فى الجاهلية والاسلام .

لريبة فيك ، ولكن افتتن الناس بك فخفت أن تفتتن بالناس »
وكتب بذلك للامصار دفعا للتهمة عنه .

عـــدله :

كان عمر أعدل حاكم عرفه التاريخ الى اليوم ، لم يدع رجلا مهما علا قدره وعظم شأنه — ولو عمر ذاته — أن يظلم فردا من الرعية أو يعتدى عليه ، وكان يأمر أن يقتص المظلوم من ظالمه فى ملأ من الناس ، ان كان الاعتداء فى ملأ منهم ، وفى خلوة ان كان الاعتداء فى خلوة .

● ومما يروى عن عدله أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان بالشام كان قد اعتنق الاسلام ، وأسلم معه طائفة من قومه ، وبينما هو يطوف حول الكعبة ، اذ وطىء أعرابى طرف ازاره ، فلطمه جبلة على وجهه ، فشكاه الأعرابى الى عمر ، فأمر عمر أن يؤتى بالأمير ويقتص منه الأعرابى ، لأن الاسلام لا يفرق بين سوقة وأمير ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط ، فلما علم جبلة بذلك هرب تحت ستر الظلام عائدا الى وطنه ، ورجع الى دينه[1] .

وكان عمرو بن العاص واليا على مصر ، وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه أحد المصريين ، واختلفا لمن

(1) ان هذا التصرف فى الاسلام لم يفد بقاء جبله واتباعه على دين الاسلام ، ولكنه كان هذا سببا فى اطمئنان الضعفاء الى عدله ، ورهبة الاقوياء من بأسه .

يكون الفرس السابق ، وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول « أنا ابن الأكرمين » ورفع المصرى شكواه الى عمر ، فاستدعى الوالى وابنه ونادى عمر : أين المصرى ؟ وقال له « دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين » . وصاح بالوالى غاضبا وقال تلك القولة الخالدة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

● وروى أن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب دخل على عمرو ابن العاص واعترف بأنه شرب خمرا ، فحلق رأسه وأقام عليه الحد ، فلما بلغ عمر ذلك قال لعمرو « انما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، وفى ذلك يقول حافظ :

وما أصاب ابنه والسوط يأخذه
لديه من رأفة فى الحد يبديها
ان الذى برأ الفاروق نزهه
عن النقائص والأغراض تنزيها

● وروى أن أحد أفراد الرعية شكا الى عمر فى موسم الحج — الحاكم الذى ضربه بغير حق ، فلما استبان لعمر ظلم الحاكم ، قضى بأن يقتص منه الشاكى ، ففزع الولاة الى عمر يطلبون اليه أن يعفى هذا الحاكم من القصاص حرصا على هيبة السلطان ، فلم يقبل عمر رغم كثرة الالحاح ، ولكنه رضى فى آخر الأمر أن يعفى الحاكم اذا رضى الشاكى وقد رضى فعلا ، وكانت حجة عمر فى هذا التشبث أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اقتص من نفسه .

شفقته ورحمتـــه :

كان رضى الله عنه مثلا أعلى فى الشفقة ورقة العاطفة ، وكان من عادته أن يخرج بالليل مستطلعا أخبار رعيته ، وقد روى أنه مر ذات ليلة بأحد الأكواخ فسمع صوت أطفال يبكون من شدة الجوع ، فلما دخله وجد امرأة تعلل هؤلاء الأطفال بأنها تعد لهم طعاما فى قدر على النار ، وما كان بالقدر من طعام ، فدمعت عيناه ، وخرج ثم عاد يحمل الدقيق على كتفيه وشارك أم الأطفال فى اعداد الطعام ، وجعل ينفخ ليشعل النار والدخان يتخلل لحيته ، وسهر معهم حتى نضج الطعام وشبع الصغار وفى ذلك يقول حافظ :

ومن رآه أمام القدر منبطحا ... والنار تأخذ منه وهو يذكيها
وقد تخلل فى أثناء لحيتــه ... منها الدخان وفوه غاب فى فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على ... حال تروع لعمر الله رائيها
يستقبل النار خوف النار فى غده ... والعين من خشية سالت مآقيها

• وفى ليلة أخرى سمع أنين امرأة قد جاءها المخاض ولا أحد بجانبها يقدم لها يد المساعدة ، فأسرع الى زوجته أم كلثوم ، فما كادت تعلم بالخبر حتى ذهبت لنجدتها ، وأحضرت معها ما تحتاج اليه المرأة فى مثل هذه الأحوال ، وظلت مرافقة لهـا حتى تم لها الوضع .

• ومر ذات ليلة فسمع صبيا يبكى فلم يأبه لذلك ، وفى الليلة التالية سمعه يبكى ، فسأل أمه عن سبب بكائه ، فقالت انهـا

تمنعه من الرضاع لأن عمر لا يفرض مالا للأطفال الا بعـد فطامهم ؛ فجزع لذلك جزعا شديدا وقال « يابؤسا لعمر !! كم قتل من أولاد المسلمين » ، وفى الصباح أمر من ينادى بأن عمر يفرض للأطفال من يوم ولادتهم وكتب بذلك الى الآفاق .

• وروى أنه حضر الى مجلسه أحد الولاة الذين رشحهم لاحدى الولايات ليتسلم كتابه ، فأقبل صبى صغير وجلس فى حجر عمر ، وأخذ عمر يلاطفه ويقبله . فعجب الرجل من ذلك وقال لعمر : ان لى عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم . فقال له عمر : ان الله نزع الرحمـة من قلبك ... انما يرحم الله من عباده الرحماء ، ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق قائلا : اذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم رعيته !!

وكان رضى الله عنه سريع البكاء ، ويرى أثر البكاء على خديه يشاهد فيهما خطان أسودان من كثرة البكاء وكان بكاء الطفـل يزعجه ويؤرق ليله .

• وكان يكره سفك الدماء ، ولقد تردد كثيرا فى الموافقة على فتح مصر ، وكان يقول « ان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار » ولم يحاول غزو الفرس الا بعد أن تأهب كسرى للغارة على المسلمين . وكان عمر يقول « وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » ؛ وكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافهـا وحماية الاسلام فى عقر داره والأعداء يحيطون به من كل جانب .

تواضـــعه :

كان رضى الله عنه أشد الناس تواضعا ، وكان يقول لنفسه اذا خلا اليها : بخ بخ يا ابن الخطاب ، أصبحت أمير المؤمنين ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ثم ولاك أمر المسلمين ، لقد كنت ترعى الغنم لأبيك قبل الاسلام ، ثم يشير الى المكان الذى كان يرعى فيه ولا يأنف من ذلك ، وكان يدخل حظيرة الابل ويحصيها ويطلى ابل الصدقة بالقطران فى موضع (الجرب) كما يفعل الرعاة .

● قدم عليه الأحنف بن قيس فى وفد من العراق فرآه يفعل ذلك ، فقال عمر : يا أحنف اخلع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فانه من ابل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين ، فقال رجل من القوم : هلا أمرت أحدا من عبيد الصدقة أن يفعل ذلك ، فقال عمر : وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف ؟ انه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده فى النصيحة وأداء الأمانة .

● ولما رأى عمر الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب ، وقال للسادة مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدمهم ! ثم دعا الخدم فأكلوا مع سادتهم فى جفان واحدة .

● وكان يسافر مع خادمه فلا يتميز عليه فى المأكل أو المركب أو الكساء ، وقد يعترض طريقة مخاضة ، فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء وهو يجر بعيره .

● روى أنه لما وصل رسول كسرى الى المدينة ، سأل عن

قصر الخليفة ، فعلم أنه لا يسكن قصرا ، وانتهى به الأمر الى أن وصل الى بيت كبيوت أفقر العرب ، ورأى الخليفة العظيم راقدا على الرمل فى ظل شجرة أمام البيت جاعلا من الرمل وسادة أسند اليها رأسه ، فاستولت عليه الدهشة عندما قارن تلك الحال بمظاهر الأبهة ، والعظمة التى يحاط بها الملوك فى وطنه ، وفى ذلك يقول الشاعر حافظ ابراهيم :

وعهـده بملـوك الفرس أن لهـا
سورا من الجن والأحراس يحميها
رآه مستغرقا فى نومه فرأى
فيه الجـلالة فى أسمى معانيهـا
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا
ببردة كاد طـول العهـد يبلهـا
فهان فى عينـه ما كـان يكبـره
من الأكاسر والدنيـا بأيديهـا
وقال قـولة حق أصبحت مثـلا
وأصبح الجيل بعد الجيـل يرويها
أمنت لـما أقمت العـدل بينهـم
فنمت نـوم قرير العين هانيهـا

● ولم يجد فى نفسه غضاضة من الرجوع عن خطئه ، فقد نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء عن أربعين أوقية فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال ، فصاحت به امرأة من صفوف النساء قائلة : ان الله سبحانه وتعالى يقول : « وآتيتم احداهن قنطارا ، فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه

بهتانا وإثما مبينا » فقال عمر : أخطأ عمر وأصابت امرأة . ثم قال : ان أحب الناس الى من أهدى الى عيوبى .

• وكان عمر يعرف للناس أقدارهم ، فلما ولى الخلافة وصعد المنبر ، نزل درجة من سلم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالدرجة الأولى .

• وفى ذات يوم كان يجتاز شارعا بالمدينة فسمع صوتا يناديه (يا عمر) فالتفت فاذا بامرأة تقول « لقد كنت تسمى (عميرا) تصارع الفتيان فى سوق عكاظ فأصبحت عمرا ، ثم أصبحت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى رعيتك ، فقال لها أحد أصحابه : لقد اجترأت على أمير المؤمنين ، فقال له عمر « دعها فانها خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها وهى تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله لو لم تنصرف عنى الى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضى حاجتها »[1] .

• وكان يخطب ذات يوم فقال « أيها الناس من رأى فى اعوجاجا فليقومه » فقام رجل وقال له « والله لو علمنا منك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فلم يزد على أن قال « الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » .

---

(١) كانت قد اغضبت زوجها فحرمها على نفسه قائلا « انت على كظهر امى » فاشتكت الى الرسول وحدتها وفاقتها ولها صبية صغار اذا ضموا اليه ضاعوا ، وان ضموا اليها جاعوا وقالت يا رسول الله لقد اكل شبابى ، ونثرت له بطنى حتى اذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى واستمرت فى الشكوى حتى نزل جبريل بآيات الظهار فى سورة المجادلة .

• وسأله بعض الناس فى مجلسه عن موضوع أشكل عليه فقال اتبعونى ، وأخذهم الى على ، فقال له على : ألا أرسلت الى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : انا أحق بالسعى اليك .

• وكان عمر قد اختلف مع رجل من الرعية فى أمر فقال له الرجل : اتق الله يا أمير المؤمنين . فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين : اتق الله ، فقال له عمر : نعم ما قال : لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها منكم .

• روى أنه لما دخل الشام أراد أصحابه أن يلبس أفخر الثياب ويدخل ممتطيا صهوة جواده تحف به الركبان ، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى ترجل ونزل الى الأرض وفى ذلك يقول حافظ :

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا
أن يلبسوك من الأثواب زاهيها

ويركبوك على البرذون تقدمه
خيل مطهمة تحلو مرائيها

فصحت يا قوم كاد الزهو يقتلنى
وداخلتنى حال لست أدريها

وكاد يصبو الى دنياكم عمر
ويرتضى بيع باقيه بفانيها

ردوا ركابى فلا أبغى بها بدلا
ردوا ثيابى فحسبى اليوم باليها

زهـــده وتقشفه :

• كان رضى الله عنه يعيش فى بيته عيش الكفاف ، ويقنـــع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس ، ويأبى أن يذوق أثناء المجاعة طعاما لا يسع جميع المسلمين ، وكان يكره أن يأكل أو يلبس خيرا مما أتيح للنبى وأبى بكر ، وكان يذكر فقر النبى وخليفته عندما يرى ما يحمل اليه من الفىء والخراج فتفيض عيناه بالدموع .

• وكان يقول لا يحل لعمـــر من مال الله آلا حلتين : حلة للصيف وحلة للشتاء ، ومع ذلك كان لا يستبدلها حتى تبلى ، وكان كثيرا ما يرقعها اذا بليت . ويقول الرواة : انه تأخر يوم جمعة بعض الوقت ، فلما حضر صعد المنبر واعتذر عن تأخره بأنه كان يغســـل قميصا له وانتظر حتى جف ، ولم يكن لديه قميص غيره .

• ولم يكن يستبيح لنفسه من مال المسلمين أجرا على عمله الا ما يسد رمقه هو وأهل بيته ، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه ، وكان يقول انى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ، ثم يتلو قوله تعالى « ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » .

• وكان يقترض من بيت المال عند الضرورة القصوى ، فاذا أيسر رد ما اقترضه ، وقد يتأخر بعض الوقت فيطالبه صاحب بيت المال بسرعة الوفاء ، ولا يجد عمر فى نفسه غضاضة من ذلك .

• وكان يقول « انما مثلى ومثل هؤلاء (أى الرعية) كمثل قوم كانوا على سفر ، فرفعوا نفقتهم الى رجل منهم ، وقالوا له : أنفق علينا ، فهل له أن يستأثر عليهم بشىء ؟

ومع أن المسلمين أحلوا له أن يأخذ من بيت المال ما يكفيه وأهله الا أنه آثر ما عند الله فى الآخرة على ما فى الدنيا من ألوان المتاع ، ورد الى بيت المال جميع ما أخذه لقوته وقوت أهله ، واعتبر هذا دينا عليه ، كما فعل أبو بكر من قبل ، وكثيرا ما كان يردد هذه العبارة : وددت لو أخرج منها — يريد الخلافة — كفافا لا على ولا لى .

• ويقول الرواة : انه دخل على ابنته حفصة أم المؤمنين فقدمت له مرقا صبت عليه بعض الزيت ، فقال لها : أدامان فى اناء واحدا لن أذوقه ، وقد تعود شظف العيش خشية أن يقال يوم الحساب « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » .

وفى خلال المجاعة عرف أن عامة المسلمين لا يجدون السمن فحرمه على نفسه واكتفى بالخبز الجاف والزيت .

ويروى أن زوجته اشتاقت الى بعض الحلوى ، فأخذت تقتصد بضعة دراهم كل يوم من المصروف المقرر لها من بيت المال ، فلما اكتمل لديها ثمن الحلوى ، أمرها برده الى بيت المال ، وفى ذلك يقول الشاعر حافظ ابراهيم :

ويوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لهـــا
من أين لى ثمن الحـــلوى فأشريهـــا

لا تمتطى شـــهوات النفس جامحـــة
فكسرة الخبـــز عن حـــلواك تجزيهـــا
ما زاد عن قوتنـــا فالمســـلمون بـــه
أولى فقـــومى الى بيت المـــال رديهـــا

ولمـــا عقد الصلح مع ملك الروم ، أرسلت زوجته هدية الى أم كلثوم زوجة عمر تحتوى فيما احتوته عقدا فاخرا ، فوقع العقد فى يد عمر حين أقبل به البريد ، فلم يقبل أن يعطيه لزوجته بل أمر برده الى بيت المال .

● وجىء بمال الى عمر ، فقالت له ابنته حفصة أم المؤمنين : لا تنس حق أقاربك من هذا المال ، وقد أوصى الله عز وجل بالأقربين ، فقال لها : حق أقربائى فى مالى ، أما هذا فحق المسلمين ! غششت أباك وحابيت أقربائك .

وفـــاته :

لقد أثقلت كاهله أعباء الخلافة ، ولقد كان يقول فى سنة وفاته « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، وامتنى فى بلد رسولك » .

● ولقد خرج ذات يوم قبيل الفجر يوقظ الناس كعادته فلم يكد يدخل المسجد ويسوى الصفوف ويؤم الناس حتى فاجأه أبو لؤلؤة المجوسى بثلاث طعنات ، فأمر عبد الرحمن بن عوف أن يصلى بالناس ، وتكاثر الناس على القاتل ولكنه قتل نفسه

قبل أن يسأل أو يجيب ، وحملوا عمر الى داره ، ولما علم أن قاتله أبو لؤلؤة المجوسى قال « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له » وظل يردد قوله تعالى « وكان أمر الله قدرا مقدورا ! » .

● ولما حضرته الوفاة ، أشار عليه بعض الصحابة أن يستخلف ابنه عبد الله بن عمر فقال « لا أرغبها لأحد من أهل بيتى ، ان كانت خيرا فقد أصبنا منها ، وان كانت شرا فبحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد » .

وكان يفكر فى مستقبل الأمة وهو على فراش الموت ، فقال لمن حوله « عليكم بهؤلاء الرهط الذين بشرهم رسول الله بأنهم من أهل الجنة ، ومات وهو عنهم راض : على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، واذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأت اليوم الرابع الا وعليكم أمير من هؤلاء » ثم ذكر لكل واحد منهم من المميزات والخصائص ما يجعل الأمة تطمئن كل الاطمئنان لمن يقع عليه الاختيار ، ثم قال لصهيب « صل بالناس ثلاثة أيام » .

● وقد أوصى من يلى الخلافة بعده أن يترك ولاة الأقاليم فى ولاياتهم عاما بعد وفاته ، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من اقرار أو عزل حسبما تقتضيه المصلحة العامة .

● وقد أبى أن يحضر له الناس الطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه قائلا « أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظـــر فى أمور المسلمين ؟ » .

ثم قال عمر لابنه عبد الله : اذهب الى عائشة أم المؤمنين وقل لها ان عمر ــ ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست الآن بأمير ــ يستأذنك فى أن يدفن مع صاحبيه ، فلما أبلغها ما قال عمر قالت : لقد كنت أخترته لنفسى ولأوثرنه به اليوم[١] .

وقد تنبأ له النبى صلى الله عليه وسلم أنه سيموت شهيدا فمات شهيدا فى مدينة النبى كما كان يتمنى ، وقتل فى أحب الأوقات الى الله فى صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة ...

« ان قرآن الفجر كان مشهودا »

---

(١) كانت عائشة قد اذنت له قبل ذلك ، ولكن عمر خشى ان تكون موافقتها له وقتئذ لما كان فى يده من سلطان .

الفصل الثالث

عثمان بن عفان

مولده ونشأته :

ولد عثمان بالطائف أخصب بقاع الحجاز فى السنة السادسة من عام الفيل ، فهو أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين ، وكان أبوه عفان صاحب تجارة وسعة ، ومات بالشام قبل عودته من احدى الرحلات ، وخلف لابنه ثروة ضخمة ، فاشتغل عثمان بالتجارة مثل أبيه حتى أصبح من كبار الأغنياء فأحسن الى قومه واغدق عليهم عطاءه ، فأحبوه حبا شديدا يضرب به المثل ، ولكنه لم يكن ليبخل على نفسه بالتمتع بما أفاءه الله عليه من واسع عطائه فكان يعيش فى رغد من العيش ، يأكل أطيب الطعام ، ويرتدى أفخر الثياب ، مخالفا ما كان عليه أبو بكر وعمر من التقشف والزهد خشية أن يقال لهما يوم الحساب « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » أما عثمان فكان لا يرى بأسا من هذا النعيم مصداقا لقوله تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وكان من بين زوجاته رقية بنت رسول الله ثم أختها أم كلثم

بعد وفاتها[1] ولم يولد له ذرية من بنتى رسول الله سوى عبد الله ابنه من السيدة رقية وقد عاش الى السادسة من عمره ثم مات[2] ، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات .

اســلامه :

كان عثمان أول من أسلم من بنى أمية ؛ وقد كان يتيما فى صباه الباكر ، وعاش فى بيت زوج أمه ، ولما اعتنق الاسلام شكاه الى أمه ، فلم تفعل شيئا ، فشكاه الى عمه (الحكم بن العاص) الذى حاول اقناعه بالعودة الى دين آبائه واستعمل معه كل أساليب العنف بلا جدوى ، ويروى عن سبب اسلامه أنه عاد مرة من احدى رحلاته التجـارية فى الشام ، فسمع الناس يتكلمون عن محمد ودينه الجديد ، فذهب الى أبى بكر ليعلم منه حقيقة الأمر ، وكان عثمان وقتئذ فى الثلاثين من عمره ، فقال له أبو بكر « ما هذه الأوثان التى يعبدها قومك ؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ! » وأخذ يشرح له مبادىء الدين الجديد حتى انشرح صدره للاسلام ، ودعاه أبو بكر الى لقاء النبى ، فلما قابله قال له عليه الصلاة والسلام « يا عثمان أجب الله الى جنته ، فانى رسول الله اليك والى جميع خلقه »

---

(1) قبل البعثة كان ابو لهب عم النبى على صلات طيبة مع ابن اخيه محمد فزوج ولديه عتبة وعتيبة من ابنتيه رقية وأم كلثوم ، وبعد البعثة انقلب ابو لهب على ابن اخيه وصهره هو وزوجتـه (حمالة الحطب) وعملا على طلاق ولديهما من زوجتيهما فعادت الزوجتان الى بيت أبيهما رسول الله .

(2) ربما كان ذلك لحكمة يعلمها الله ، فنسل النبى كلهم الى اليوم من على بن أبى طالب وزوجه فاطمة .

قال عثمان : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » ثم مالبث رسول الله أن زوجه ابنته رقية ، وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها من أقاربه نيابة عنه ، لينعم بالقرب من الرسول ، وبفضل مصاحبته للنبى ، وسماعه لحديثه ومشاهدته لأفعاله ، والاقتباس من هدى سنته وينابيع حكمته ازداد علما وتقوى . وكان يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبى عليه الصلاة والسلام فى تدوين ما كان يوحى اليه من القرآن مع غيره من الصحابة .

مكانته عنـد الرســول :

كان عثمان موضع سر النبى عليه الصلاة والسلام ، ومنذ اسلامه لزم النبى ولم يفارقه الا للهجرة باذنه أو فى مهمة من المهام التى يندبه لها الرسول ، وكان عثمان أول سفير للاسلام أرسله رسول الله لقريش ، وقالوا له « ان شئت أن تطوف بالبيت فطف » فأجاب قائلا « ما كنت لأفعـل حتى يطـوف رسول الله صلى الله عليـه وسلم « وأشيع أن قريشا غدرت بسفيرهم اليها ، وأخذ النبى فى مبايعة أصحابه فتمت بيعة الرضوان فى « الحديبية » من أجل عثمان ، وبايعوا الرسول على قتال أهل مكة ، وبايع الرســول عن عثمان باحدى يديه الأخرى ، وقال ابن عمر : يد الرسول لعثمان خير من يد عثمان لنفسه .

● وكان عثمان يكتب الوحى عند نزوله ، وكان عليه الصلاة

والسلام يناديه متوددا اليه ويقول وهو يطى عليه « اكتب يا عثيم » .

● **وقد زوجه الرسول ابنته رقية** ، فخرجت من بيت الشرك والطغيان الى بيت الأمن والأيمان ، ولما اشتد أذى قريش للمسلمين ، استأذن عثمان النبى أن يهاجر بها الى الحبشة ، فهاجرت وفارقت أحب الناس اليها : أباها وأمها وأخوتها ، ولما عادت الى مكة ، وجدت أن أمها خديجة قد ماتت ، ثم هاجرت الى المدينة لتلحق بوالدها ، فمرضت هناك ، وأذن النبى لزوجها أن يتخلف عن غزوة بدر ، ورغم تخلفه عنها فقد اعتبره الرسول حاضرا وضرب له بسهم وعد من أهل بدر ، وظل عثمان يقوم على تمريض زوجته حتى وافاها الأجل المحتوم ، وكان ذلك يوم أن قدم البشير الى المدينة يبشر بنصر المسلمين وهزيمة قريش ، فحزن عثمان حزنا شديدا لانقطاع صهره من رسول الله[1] ، وقد طيب النبى خاطره وقال له « ان صهرك منى لا ينقطع ، وقد أمرنى جبريل أن أزوجك أختها بأمر الله ، ولو كن يا عثمان عشرا لزوجناكهن واحدة بعد واحدة » وزوجه أختها أم كلثوم ، ومن أجل ذلك كان يلقب « بذى النورين » .

● وقد ثبت عن النبى قوله « سألت ربى عز وجل ألا يدخل النار أحدا صاهر الى أو صاهرت اليه » ، ويكفى لبيان فضله

---

(1) عرض عليه عمر يومئذ ابنته حفصة ، وكانت ايما (عازبة) فاعتذر ، فشكاه عمر الى النبى ، فقال النبى لعمر « سيزوج الله ابنتك خيرا من عثمان ، وسيتزوج عثمان خيرا من ابنتك » وقد كان ؛ حيث تزوج رسول الله حفصة ، وزوج النبى عثمان ابنته أم كلثوم.

أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، والذين توفى رسول الله وهو راض عنهم كل الرضا .

وكان النبى ، يثنى عليه ويقول : لكل نبى رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان » .

● وعندما حاصره الثائرون فى أواخر أيام خلافته وهددوا بقتله عرض عليه معاوية أن يرسل اليه جندا من أهل الشام لحمايته ، أو أن يذهب هو وأسرته الى دمشق حيث يجد أنصارا وأعوانا للدفاع عنه ، ولكنه أبى الا أن يبقى بالمدينة وقال : « لا أبيع جوار رسول الله بشىء ولو كان فى ذلك اهدار دمى » .

● وظلت مكانته عند أبى بكر بعد وفاة الرسول ، فكان عثمان ثانى اثنين فى الحظوة عند أبى بكر : عمر بن الخطاب للشدائد والأزمات ، وعثمان للرفق والأناة ، كما ظلت مكانته عند عمر بعد وفاة أبى بكر ، وهو الذى أشار عليه باحصاء الناس فى سجلات ودواوين يرجع اليها فى أرزاقهم وأعطياتهم ، كما أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ من شهر المحرم ، كما أشار عليه بالفصل بين الأمامة والقيادة ، لأن فقد الامام قد يشعل نار الفتنة ، أما فقد القائد فعلاجه تولية من يحل محله .

خلافته (من ٢٣ ـ ٣٥ هـ) :

بعد أن طعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب ، ونقل الى داره حيث مكث فيها ثلاثة أيام ، طلب الصحابة اليه أن يعين له خلفا قبل موته ، فتردد عمر فى أول الأمر وتهيب أن يتحمل مسئولية الخلافة حيا وميتا ، ولكنه خشى ان ترك الأمر بدون

توصية منه أن يتجدد الخلاف والشقاق بين المسلمين على من هو أحق بالخلافة ، فهداه تفكيره الى حل وسط ، وهو أن يرشح للخلافة الستة الباقين على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة لما كان لهم فى الاسلام من تاريخ مجيد حافل بالمواقف المشرفة والمناقب الحميدة التى تجعل أيا منهم جديرا بالخلافة ، وهم : على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان .

وتنازل عبد الرحمن بن عوف عن ترشيح نفسه ليتولى عملية الانتخاب بين الخمسة الباقين ، وأجمعت أكثرية الأصوات على اختيار عثمان أو على ، وكادت تشب نار الفتنة بين الفريقين : بنى هاشم وبنى أمية — لولا تدخل عبد الرحمن بن عوف الذى حسم النزاع بمبايعة عثمان بالخلافة .

• وكان أهل المدينة فريقين : فريق يؤيد عثمان طمعا فى لينه وسخائه وعطائه بعد ما رأوه فى خلافة عمر من التقشف والعزوف عن متاع الدنيا ؛ فتوقعوا السعة ورغد العيش فى خلافة عثمان ، وكان الفريق الآخر يؤيد « عليا » ويتحين الفرص للطعن فى تصرفات عثمان ، وكان أول ما أخذوه عليه أنه عفا عن عبيد الله ابن عمر ولم يقتص منه لقتله الهرمزان الذى حرض أبا لؤلؤة المجوسى على قتل أبيه ؛ ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ، ولا أن تقوم البينة الناطقة عليه ، وقال خصوم عثمان : انه عطل حدا من حدود الله ، وخالف نص القرآن . وأشار بعضهم — ومنهم على — بالقصاص منه ، واعترض أنصار عثمان على ذلك وقالوا : يقتل عمر بالأمس ونقتل ابنه اليوم ، ولكن عثمان أنقذ الموقف وقال : « أنا ولى الهرمزان حيث لاولى له يطالب بدمه ، وقد

عفوت عن عبيد الله بن عمر ، وسأدفع الدية من مالى الخاص الى بيت مال المسلمين » ولا شك أن هذه سياسة رشيدة تتفق مع ما عرف عن عثمان من الرفق واللين فى الأمور كلها ، فما كان له أن يستفتح خلافته بقتل أحد أبناء عمر .

• وقد استقبل الخلافة وهو شيخ كبير قد بلغ السبعين من عمره ، وكان يريد أن يسير سيرة أبى بكر وعمر لا يغير منها شيئا ، ومرت السنوات الست الأولى من حكمه والبلاد تنعم بالأمن والرخاء والاستقرار . ولكن ظروف الدولة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد تغيرت فى أواخر عهده عما كانت عليه فى عهد أبى بكر وعمر . وبدأ الانقسام الذى أدى الى تمزيق وحدة المسلمين ، ولم يتورع الولاة عن استخدام نفوذهم فى جمع الأموال واستغلال جاههم فى تحقيق مآربهم .

سياسته فى الحكم :

كانت سياسة عثمان تهدف الى اطلاق العلية من القوم فى الآفاق ارضاء لهم وتوسلا بمقامهم بين شعوب هذه الدول ، واختار للولاية أناسا من ذوى قرابته على خلاف سياسة أبى بكر وعمر اللذين كانا يستبقيان العلية من القوم الى جوارهما للاستئناس برأيهم فى شئون الحكم واشراكهم معهما فى رقابة العمال والولاة .

• ولما تولى عثمان الخلافة لم يعزل أحدا من الولاة عاما كاملا اتباعا لوصية عمر ، ثم كتب اليهم جميعا يأمرهم أن يكونوا رعاة ولا يكونوا جباة ، أى أن تكون غايتهم من الحكم الرفق

بالمحكومين لا اغناء الحكومة ، وأوصاهم خيرا بأهل الذمة من أبناء البلاد التابعة ، وكان عثمان لا يعزل أحدا الا بناء على شكوى أثبت التحقيق جديتها .

وفى خلال أيام خلافته تلاحقت الثورات والفتن ، ونقض الفرس والروم معاهداتهم مع العرب ؛ فأخذ يعالج هـذه المشكلات بحزم وعزم ، ورغم امتداد خطوط القتال وتباعد المسافات بين البلدان ، وكثرة العناصر والأجناس فى جيوش المسلمين ، فقد قام عثمان باعبائه الجسام على أكمل وجه ، وكان له أكبر الفضل فى المحافظة على هيبة الدولة بعد مقتل عمر .

● ولم يقتنع باخماد الثورات بل أمر قواده باقتحام البلاد التى نشبت فيها الثورات منعا لارتداد الهاربين اليهـا ، وتجدد الفتن والدسائس ؛ فتقدمت جنوده شرقا الى حدود الهنـد والصين ، وشمالا الى ما وراء بحر قزوين ، وغربا الى أبواب القسطنطينية ، وجنوبا الى السودان وحدود الحبشة ، كما استولوا على جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسـط .

● وأتيح لعثمان فى التوسع فى الفتح والقضاء على دولة كاسرة واذلال الروم فى البر والبحر ما لم يتح لعمر ، وكان هذا التوسع مصدرا من مصادر الفتنة والشقاق حيث أتاح لمسلمين من الغنى والغنائم الشىء الكثير ، وكان تصرف عثمان بعض تلك الغنـائم يثير عليه الجنـود وبعض المهـاجرين لأنصار ، فضلا على أن بعض الولاة من أقاربه لم يكونوا

أهلا للثقة التى وضعها فيهم مما أدى الى قيام الثورات التى انتهت بمصرعه .

المصحف العثمـانى :

كان أجل عمل قام به عثمان جمع القرآن الكريم وتوحيـد مصاحفه واجتماع الأمة كلها فى مشارق الأرض ومغاربها على مصحف موحد وهو المعروف باسم المصحف العثمانى نسبة الى عثمان ؛ ويروى أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان . وكان عائدا من الغزو فى الشام والعراق ، وأفزعه اختلاف الناس فى قراءة القرآن بدرجة أن بعضهم كان يقول للبعض الآخر : ان قراءتى خير من قراءتك ، وقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى كتاب رب العالمين كما اختلف اليهـود والنصارى فى التوراة والانجيل فتعددت النسخ ينقض بعضها بعضا ، ويتمسك كل فريق بما فى يده ، ويزيدون وينقصون فيها تبعا لأهوائهم ، فأرسل عثمان الى حفصـة فى طلب المصحف المحفوظ لديها ، وأمر أربعة من أشهر القراء[1] ثلاثة من قريش وواحد من الأنصار ، وقال لهم : اذا اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم ، فلما نسخوا المصاحف رد عثمان المصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل قطر بالمصحف المتفق عليه وأمر بسواه أن يحرق .

---

(1) هم عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحارث ، وزيد بن ثابت الأنصارى صاحب الجمع الأول فى عهد أبى بكر الذى قصد به جمعه فى مكان واحد خشية أن يذهب شىء منه بذهاب حفظته .

• وكان عثمان فى هذا العمل الجليل ينظر بنور الله تعالى الى مستقبل الاسلام البعيد بجمع الأمة على مصحف موحد حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ولو ترك عثمان الناس يقرءون قراءات مختلفة لكان هذا مصدر فرقة واختلاف ، لا سيما بعد أن اعتنق الاسلام كثير من الأعاجم .

علمه وثقافتـــه :

كان رضى الله عنه من أفقه المسلمين فى أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة ، وكان أعلم الناس بالمناسك ، وقد أخذ عليه بعض الناس أنه لم يقصر الصلاة فى منى وعرفات ، وقصر الصلاة فى السفر رخصة ، واتمامها عزيمة ؛ وقد أخذ عثمان بالعزيمة ، لأن الله سـبحانه وتعـالى يحب أن تؤتى رخصـه كما تؤتى عزائمـه .

• وكان رضى الله عنه يجيد الكتابة ؛ فاعتمد عليه النبى عليه الصلاة والسلام فى تدوين الوحى ، كما اعتمد عليه أبو بكر فى كتابة الوثائق الهامة ، وآخرها الوثيقة التى عهد فيها بالأمر من بعده لخليفته عمر بن الخطاب .

وينقل عنه الرواة كثيرا من أمثال العرب وأشعارهم ، وكان محدثا لبقا ، يأسر ألباب مستمعيه ، ولذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يأنس بمجلسه ويسر بمجالسته ، وكثيرا ما كان يقع الاختيار عليه ليكون سفيرا بين المسلمين وأعدائهم ، وساعده على ذلك ما اكتسبه من التجارب فى رحلاته فى الشام والحبشة وغيرهما وما أفاده من معرفته بحياة الناس وأعمالهم وحضارتهم مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته .

وكان يخطب المسلمين فى كثير من المناسبات خطبا رائعة ، وكان يبعث للولاة والقادة — الجنـد بالكتب التى تعتبر بحق معجزة فى البلاغة يتخللها عبارات النصح والارشاد ، يبدأ هذه الكتب ويختمها بآيات من القرآن الكريم ، وساعده على ذلك حفظه للقرآن ووعيه لما يتضمنه من هدى وتشريع ، وحكم وأحكام ، وقصص وآداب ، وبلاغة واعجاز .
الدراســـات — حمدى قاســم

دماثة طبعه وشدة حيائه :

ولد عثمان بالطائف أخصب بقاع الحجـاز ، والطائف كما يقولون روضة الحجاز ؛ عرفت بجودة هوائها وكثرة خـيراتها وتوافر فاكهتها وكان لكل ذلك أثر فى حياة عثمان وما عرف عنه من لين العريكة ورقة الطبع ودماثة الخلق وسماحة النفس وشدة الحياء ، وخلف له أبوه ثروة واسعة فأحسن الى قومه وأغدق عليهم عطاءه فأحبوه حبا جما حتى كانت المرأة فى قريش ترقص ولدها وهى تقول :

أحبـك والرحـمن   حب قريش عثمان

• وكان من أشد الناس حياء ، ويقال انه كان لا يقيم صلبه وهو يغتسل حياء من كشف عورته ، قالت عائشة كان رسول الله مضطجعا فى بيتى كاشفا فخذيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسـوى ثيابه ، فلما خرج سألته عائشة عن ذلك فقال لها : ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة ، ان عثمان رجل حيى ، وانى خشيت ان أذنت له على

تلك الحال ألا يبلغ الى حاجته ، وورد فى الحديث الشريف « أشد أمتى حياء عثمان بن عفان » .

كرمه وسخاؤه :

لم ينل عثمان حظـه فى ميادين الجهاد فآلى على نفسه أن يسبق أصحابه فى ميادين الجود والسخاء ، وقد هاجر الى الحبشة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة .

● وقد أصاب الناس قحط فى عهد أبى بكر حتى أشرفوا على الهلاك ، فذهب التجار الى عثمان عندما علموا أن قافلة له قدمت من الشام تحمل قمحا وطعاما ، وأناخت بباب عثمان وحاولوا شراءها لبيعها بمعرفتهم ؛ فقال لهم « كم تربحونني على ثمن الشراء ؟ » قالوا العشرة اثنى عشر ، وظلوا يساومونه حتى قالوا العشرة خمسة عشر ؛ فقال لهم « ان الحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وانى أشهدكم يا معشر التجار أنى جعلت ما حملت هذه البعير صدقة على فقراء المدينة » .

● وروى أن عثمان اشترى بستانا من رجل فأعطاه ضعف الثمن الذى طلبه وقال : سمعت رسول الله يقول :

« أدخل الله رجلا الجنة كان سمحا اذا باع ، سمحا اذا اشترى » .

● وقد شكا المهاجرون تغير طعم الماء بالمدينة ، ولم يجدوا منها غير بئر واحدة طيبة الماء يملكها رجل يهودى ، فاشترى منه عثمان نصفها ، وأباح لانتفاع المسلمين بمائها بدون مقابل

فى اليوم المخصص له ؛ فكان المسلمون يأخذون كفايتهم من الماء فى يوم عثمان ، فاضطر اليهودى أن يبيع نصفه لعثمان ، ولما تم له ذلك وهب عثمان ماءه للمسلمين فى جميع الأيام .

● وعثمان أول من وسع مسجد رسول الله استجابة لرغبة النبى عليه الصلاة والسلام حين ضاق المسجد بالمصلين ، فاشترى أرضا بلغت قيمتها عشرين ألف درهم وضمها الى المسجد .

● ولما جهز رسول الله جيش العسرة لغزوة تبوك(١) تكفل عثمان وحده بثلث نفقاتها ، وتبرع للمجاهدين بالمطايا والأطعمة وجاء بألف دينار ووضعها فى حجر النبى فدعا له وقال « ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » .

● وكان ذا ثراء عريض ، ساعده على أنبل المواقف فى الاسلام وكان ينفق فى سبيل الله بلا حساب ؛ وقد أنفق من ماله فى تأييد دعوة الاسلام ما لم ينفق مثله مسلم قط .

● وكان بارا بأهله يعطف عليهم ويقربهم اليه ، ويعهد لبعضهم بولاية الأقاليم ، وقيل له : ان عمر لم يفعل ذلك من قبل ، فقال لهم : « ان عمر كان يمنع رحمه تقربا الى الله ، وأنا أصل رحمى تقربا الى الله ، ومن لنا بمثل عمر ؟ يقولها ثلاثا » .

مصرعه :

صلى عثمان بالناس ذات يوم كعادته ، ثم جلس على المنبر

(١) كانت بين المسلمين والروم ، وسميت غزوة العسرة لما لقيه المسلمون من العسرة بسبب الحر والجوع والعطش بدرجة ان الرجلين كانا يقتسمان الثمرة الواحدة بينهما .

يعظ الناس ويبصرهم بأمر دينهم ، واعترضه بعض الحاضرين وأخذ أحدهم من عثمان العصا التى كان يخطب عليها فكسرها على ركبته ، وهى العصا التى خطب عليها النبى وصاحباه من بعده ، ثم ثار الناس وتراشقوا بالحجارة ، فأصاب عثمان حجر ، واحتمل مغشيا عليه وأدخل الى داره ، وحاصر الثائرون الدار محاولين اقتحامها ، ولقد وقف على باب عثمان كثير من أبطال الصحابة وأبنائهم للدفاع عنه ، وكان من بينهم الحسن والحسين ، ولبس عبد الله بن عمر درعه وتقلد سيفه ، فأقسم عليهم عثمان أن يضعوا أسلحتهم ويكفوا أيديهم حقنا لدماء المسلمين ، وقال له بعض أصحابه « اما أن تخرج وتقاتلهم جميعا وأنت على الحق وهم على الباطل ، واما أن نسهل لك الهرب الى مكة فانهم لن يستحلوك وأنت بها ، واما أن تلحق بمعاوية فى الشام » .

ولكن عثمان أبى أن ينزل على احد هذه الآراء ، وآثر البقاء والاستسلام لقضاء الله وقدره .

● ونادى الثائرون[1] بخلع الخليفة ولكنه قال « ما كنت لأخلع قميصا ألبسنى الله اياه فتكون سنة من بعدى ، كلما كره القوم امامهم خلعوه » ، وحال الثائرون بين عثمان وبين الماء حتى اشتد الظمأ عليه وعلى أهله وعياله ، فذكرهم بأنه اشترى بئر رومة بأمر النبى وجعلها سقاية للمسلمين ووعده النبى بها الجنة ، وقال الامام على للمحاصرين « ان الذى تصنعونه ليس من صنع المؤمنين ولا الكافرين ، وان الفرس والروم ليطعمون

(١) خرج الثائرون من جميع الامصار فى شهر واحد وهو شهر شوال بحجة اداء فريضة الحج .

ويسقون أسراهم » وقال لهم عثمان : سمعت رسول الله يقول : « لا يحل دم مسلم الا فى احدى ثلاث : رجل كفر بعد اسلامه ، أو زنا بعد احصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس » والله ما فعلت شيئا من ذلك ، فلم تقتلوننى ؟ ثم قال : ان الناس قد طال عليهم عمره فملوه ، وكان يتوقع القتل فى ذلك اليوم فقال لأصحابه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر فقال : « افطر عندنا الليلة يا عثمان » وكان صائما فى اليوم الذى قتل فيه .

● ووصلت أنباء الى المدينة تفيد بأن الامدادات من العراق والشام كادت تبلغها ، فأراد الثائرون أن يفرغوا من الأمر قبل وصولها ، وكان يوما شديد القيظ من أيام الصيف والشيخ الجليل الذى جاوز الثمانين من عمره لا يجد قطرة ماء يطفىء بها ظمأه ، والى جواره زوجته نائلة[1] التى شاركته ضراء الحياة وسرائها ، لا تقوى على التقاط أنفاسها من شدة العطش .

● ولما حان وقت الصلاة قام يصلى فى مصلاه حتى اذا فرغ من صلاته انكب على مصحفه يتلوه حتى وصل الى قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، وفى هذه اللحظة تمكن بعض الثائرين من تسلق الجدران وضربه أحدهم بحديدة كانت معه فسالت الدماء على المصحف ، وحاول آخر

(١) رفضت بعد مقتل عثمان أن تتزوج احدا بعده رغم كثرة خطابها وكان منهم معاوية وقد خطبها عثمان وهى مسيحية من بادية الشام واسلمت وحسن اسلامها وولدت له مريم .

قتله بسيفه ، فانجنت نائلة علي زوجها تدفع عنه الموت ، واتقت السيف بيدها فقطعت بعض أصابعها ، ولم يسلم عثمان من القتل[1] ، وكان حسان بن ثابت شاعر النبى حاضرا فتفجر فؤاده من هول المنظر ، فقال يرثى الخليفة الذبيح ، ويعجب من هؤلاء الجنود الذين تركوا الجهاد فى الجبال والدروب ، واستباحوا لأنفسهم قتل النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق .

أتركتم غزو الدروب وراءكم
وعزوتمونا عند قبر محمد

(1) ما أصاب عثمان وغيره من الخلفاء الراشدين يرجع الى هوان الدنيا على الله ، فهى لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ويريد الله أن يتخذ من هؤلاء العظماء شهداء ، ومدة الابتلاء قصيرة بالنسبة للنعيم المقيم الذى سينعمون به فى الآخرة .

الفصل الرابع

على بن أبى طالب

نسبه ومولده :

كان أبوه أبو طالب عم النبى . وكان يطلق عليه «سيد قريش» لما عرف به من الشهامة والنجدة وسمو الأخلاق ، ويكفيه شرفا أنه وقع على كاهله دون أعمام النبى جميعا كفالة النبى وتربيته فى داره ثم الدفاع عنه ونصرته عندما جهر رسول الله بالدعوة وقد ذهب وفد من قريش الى أبى طالب يشكون ابن أخيه الذى سفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، فبعث الى رسول الله وأخبره بما قال له قومه ، فقال النبى قولته الخالدة « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . فقال له أبو طالب افعل ما شئت فوالله لا أسلمك لأحد أبدا .

ولد على فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة ، وكان

أبو طالب كثير العيال فلما أصاب القحط قريشا أراد اخوته أن يخففوا عليه العبء . فأخذ العباس « طالبا » وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ النبى عليا » وضمه اليه تخفيفا عن كاهل عمه أبى طالب ، فنشأ على فى أحضان الرسول وكنفه ، وتركوا لأبى طالب ابنه عقيلا كما أحب ..

● أما جده لأبيه فهو عبد المطلب وهو الجد الأول لرسول الله ، وقد بلغ فى قريش منزلة لم يبلغها أحد ، وأطلق عليه الناس اسم « شيبة الحمد » لكثرة محامده ومفاخره وجوده وسخائه ، واليه يرجع الفضل فى اعادة حفر بئر زمزم ، وعندما بشر بمولد حفيده محمد ، حمله بين ذراعيه وأسرع به نحو الكعبة وأنشد قائلا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالله ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان

مكانته عند الرسول :

نشأ « على » فى بيت النبوة وفى رحاب الرسول الكريم منذ السادسة من عمره فلم يتدنس بدنس الجاهلية ولم يسجد لصنم قط ، وقد استأذن النبى عمه أبا طالب قبل موته ببضع سنين أن يترك له عليا ليعيش معه فى داره مع زوجته خديجة فأذن له، فكان رسول الله — ابن عمه ، وكافله ومعلمه ، وقد سأل النبى

ذات يوم وهو قائم يصلى « ماذا الذى تعمله ؟ » فأجابه الرسول « انى أصلى لله رب العالمين » فسأله على « ومن رب العالمين ؟ » فأجابه الرسول « انه اله واحد لا شريك له ، له الخلق والأمر ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير » فانشرح صدره للاسلام وهو فى العاشرة من عمره ، فكان أول المسلمين بعد خديجة ، وكان النبى يصلى اماما وخلفه خديجة وعلى ومولاه زيد بن حارثة ، ومنذ ذلك الوقت وهو لا يكاد يفارق النبى : يلازمه فى غدوه ورواحه ، ويستمع الى حديثه ، وينهل من فيض حكمته ، ويقتبس من علمه وخلقه .

● ولما كثر عدد المسلمين صارت دار الأرقم على الصفا مكان لقائهم ، فلم يتخلف على عن هذه الدار يوما من الأيام .

● ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره أراد أن يكمل نصف دينه وكا فقيرا لا يمتلك شيئا من حطام الدنيا ، وكان يتطلع الى الزواج بفاطمة الزهراء بنت الرسول ، فزوجه اياها قبل أن يسبقه اليها غيره من الصحابة الذين كانوا يتلهفون الى شرف مصاهرة النبى ، فأعقب منها الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، وانقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا من جهة فاطمة ، قال أنس « كنت مع النبى فغشيه الوحى فلما أفاق قال « أتدرى ما جاء به جبريل ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « أمرنى أن أزوج فاطمة من على » .

● ومما يدل على عظمة مكانته عند الرسول أنه عندما هاجر الى المدينة ومعه المهاجرون ، آخى بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل أنصارى أخا من المهاجرين حتى اذا فرغ من ذلك جاء

على وعيناه تدمعان فقال « آخيت بين أصحابك فى الدنيا ولم تؤاخ بينى وبين أحد » فأجلسه الرسول الى جواره وربت على كتفه وضمه اليه وهو يقول « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » •

• ويروى أنه كان عند النبى ذات يوم طعام شهى ، فقال « اللهم ائتنى بأحب خلقك اليك يأكل معى » وكان أول الداخلين على فأكل معه •

• ودخل على الرسول ذات يوم فعانقه وقبله ، فسأله العباس : أتحبه ؟ قال : « يا عم والله لله أشد حبا له منى ، وان الله قد جعل ذرية كل نبى فى صلبه وجعل ذريتى من صلب هذا » •

• واجتمع الرسول فى يوم مع على وفاطمة والحسن والحسين ، فألقى عليهم ثوبا فضفاضا وسعهم جميعا وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى » ثم قرأ قوله تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » •

• واستخلفه النبى عندما هاجر الى المدينة ليرد الودائع الى أصحابها ، فأقام فى مكة ثلاثة أيام ثم لحق بالنبى •

• وكان عليه الصلاة والسلام يثق به كل الثقة ويندبه فى مهام الأمور ، فأرسله الى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى ليقرأ على الناس سورة (براءة) ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله •

• وقد حضر جميع الغزوات مع رسول الله الا غزوة (تبوك)

حيث أمره الرسول بعدم الخروج اليها ليكون خليفته فى المدينة على أهله ، فتأثر لما فاته من شرف الجهاد ، فأرضاه الرسول بقوله على ملأ من أصحابه « أما يرضيك أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبى بعدى » •

• وفى طريقه الى حجة الوداع قال لأصحابه « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » •

خلافته (٣٥ — ٤٠) :

بعد اغتيال عثمان أصبح المسلمون فى أشد الحاجة الى خليفة قوى عادل حازم يعيد الأمور الى نصابها بعد الفتنة الكبرى التى أدت الى مقتل عثمان ، فاجتمع كثير من أهل المدينة وألحوا على الامام فى قبول الخلافة ، وكان مترددا فى ذلك ، ولم يفرح بها كما يفرح المتكالبون عليها ، بل اعتبرها مسئولية عظمى يحاسب فيها عن كل كبيرة وصغيرة تصدر منه ، الا أنهم ظلوا يلحون عليه وقالوا له ان بقاء الناس بلا خليفة يشكل خطرا قد يودى بمصير الدولة والاسلام ، فاضطر الى قبول الخلافة حرصا على وحدة المسلمين وخشية أن تعود الفتنة ، وفى الواقع لم يكن هناك من يفوق الامام فى كفاءته ومواهبه وتقواه وحسن بلائه فى الاسلام فضلا عن قربه من الرسول ، وجلس للبيعة على منبر النبى كما جلس الخلفاء من قبله ، وقد بايعه أهل الحرمين (مكة والمدينة) وبعض أهل الكوفة ، كما بايعه أهل البصرة واليمن وعمان والبحرين واليمامة ، وتخلف القليل عن بيعته حيث كانوا يضمرون له العداء لأنه قتل كثيرا من زعمائهم وشبابهم فى غزواته مع النبى ، ورأى فريق آخر أن خلافة على

ستعيد الناس الى عهد عمر فى صلابته وتضييقه عليهم بعد أن ذاقوا حلاوة الرخاء واليسر فى خلافة عثمان .

● ولم يتخلف عن بيعته الا أهل الشـــام بزعامة معاوية ، فكتب اليه على وكأنه يستعطفه حقنا لدماء المسلمين ، فكان رد معاوية بالرفض وتحميله مسئولية قتل عثمان ، وقد ولى معاوية حكم الشام مدة خلافة عمر وعثمان ، وكان يوطد مركزه بأهل الشام باغداق الهبات والعطايا عليهم ، فلما قتل عثمان (وهو ابن عم معاوية) وجد الفرصة سانحة لاتهام على بأنه المسئول عن قتله ، وأنه قصر فى حمايته وتستر على قاتليه ، ولم يقـــدمهم للمحاكمة واتخذ من هذا الادعاء ذريعة لعدم مبايعته والخـــروج عن طاعته .

● وكان فى المدينة جماعة من المهاجرين والأنصـــار آثروا الحياد ، واعتذروا عن الخـــروج مع على الى البصرة لقتـــال الخارجين عليه ، وكانت حجتهم فى ذلك أن الله أمرهم بقتـــال المشركين ، فلا يشتركون فى قتال يدور بين المسلم وأخيه ، وكان سعد بن أبى وقاص يقول « اعطنى سيفا ان ضربت به المشرك قطع ، وان ضربت به المسلم رجع وأنا أقاتل معك » وقال عبد الله ابن عمر وأسامه بن زيد أقوالا لا تخرج عن هذا المعنى ، وآلم هذا الموقف بعض أصحاب على ، فطلبوا اليه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة ، ولكنه أبى وقال « دعوهم وما اختاروا لأنفسهم » وطمع معاوية أن يكسب هؤلاء الى صفه ، فأرسل اليهم للانضمام اليه وللايقاع بينهم وبين على بقوله انهم أحق بالخلافة منه ، وكان بين المنشقين على الامام : طلحة والزبير اللذان كانا استأذناه فى الذهاب الى مكة لعمرة ، وانضم اليهما

الساخطون من ولاة عثمان المعزولين ، وانضمت اليهم السيدة عائشة أم المؤمنين لأنها كانت على خلاف قديم مع الامام منذ حادث الافك[1] ، وأصبحت مكة موئلا للمنافقين على الامام ولكل من ينكر امامته من غير أهل الشـــام ، وزجت السيدة عائشـــة بنفسها فى هذا النزاع رغم اعتراض زوجات النبى اللاتى كن يذكرنها بقوله تعالى لنساء النبى « وقرن فى بيوتكن » ولكن بلا جدوى .

(١) كانت تكرهه منذ حديث الافك حين اراد على ان يواسى النبى فاشار عليه بان يطلقها وقال له « النساء غيرها كثير » وكان ذلك قبل أن ينزل الله براءتها فى القرآن .

المواقع التى خاضها الإمام على

موقعة الجمل :

عندما علم الامام باتفاقهم على محاربته ، استعد هو أيضا للخروج الى البصرة[1] لقتالهم ، وكان مرتاح الضمير لما سيقدم عليه ، وكان يقول « والله انى لعلى بينة من ربى ، ما كذبت وما ضللت » .

• وكان أهل البصرة فرقا ثلاثة : فرقة مع عائشة وفرقة مع على وفرقة اعتزلت هذا الخلاف لا تدرى أى الفريقين على حق ، فهذا ابن عم رسول الله يحمل السيف ، وهذه زوجة رسول الله تحمل السيف ضده ، ففضلوا أن يكونوا على الحياد ، ونادى المنادى بأن أم المؤمنين وطلحة والزبير قادمون الى البصرة ، فمن كان يريد نصرة الاسلام وقتال من أحلوا دم

(1) جعل الامام على « الكوفة » مقرا للخلافة لانها ملتقى الشعوب من جميع الأجناس فضلا عن انها ملتقى التجارة بين الهند وفارس والعراق والشام .

عثمان فليتقدم ؛ فتطوع كثيرون واتجهوا نحو البصرة ؛ وركبت السيدة عائشة جملا ، واحتشد الناس حولها يتحمسون لها ، وهى تحثهم على القتال ، وحاول الامام أن يثنيها عن عزمها حقنا لدماء المسلمين ، فلقد كان يشرح صدره أن يقاتل المشركين ، أما اليوم فالقاتل والمقتول أبناء دين واحد ، وهو الخليفة المسئول عن المسلمين جميعا ، ولقد كانت هذه الأفكار تقض مضجعه وسعى بجميع الوسائل لايقاف الحرب ، ولكن دعاة الفتنة أبوا الا استمرار القتال ، ودارت معركة عنيفة سقط فيها الاف القتلى من الفريقين ، وكان من بين القتلى « طلحة » فبكاه على بكاء مرا وأخذ يمسح التراب عن وجهه وهو يقول « يعز على أن أراك مجندلا تحت نجوم السماء » وجاءه أحد أتباعه بسيف الزبير وأخبره بأنه قتله ، وكان يظن أن الامام سيسر بذلك ، ولكن أخذ السيف بيمينه وقبله وقال والدموع تسيل على خديه « يا حسرتاه : انه سيف طالما جلابه الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وسلمه الى عائشة ، ولم يجد الراغبون فى القتال سوى « أم المؤمنين » فى هودجها فوق ظهر الجمل ، وقد أخذ بزمامه سبعون رجلا من قريش ، واقتتل الناس حوله سبعة أيام ، وقد أوصى الامام بعض أتباعه أن يكونوا على مقربة من الجمل ، حتى اذا وقع على الأرض بسبب سهم أصابه ، سرعوا الى هودج عائشة وتلقوه قبل أن يصل الى الأرض حتى لا يصيبها أى مكروه ، ثم استدعى محمد بن أبى بكر شقيقها — وكان يحارب فى صف على — وأمره أن يصحب أخته الى دار أعدت لاستقبالها فى البصرة . وانتهت هذه الموقعة بانتصار جيش أمير المؤمنين . وكانت عائشة أشد المغلوبين حسرة وأعظمهم

ندما ، وكانت تتلو قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن » الى آخر الآية ثم تبكى حتى يبتل خمارها ، ولما عادت الى مكة قالت « لو تخلفت عن يوم الجمل لكان ذلك أحب الى من أن يكون لى عشرة بنين[1] من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

موقعة صفين :

بعد أن تحقق النصر للامام على فى موقعة الجمل ، كان معاوية يجمع أهل الشام حوله ويحرضهم على المطالبة بدم عثمان ، وكان يستثيرهم بعرض قميص عثمان الملطخ بالدم وأصابع من أصابع زوجته نائلة على منبر دمشق ، فبكى القوم وأقسموا على الانتقام من قتلة عثمان ، وتحركت جيوش معاوية من دمشق نحو نهر الفرات ، ثم أقبلت جيوش على من الكوفة الى شاطىء الفرات . والتقى الجيشان فى « صفين » وكان قتلى صفين أضعاف قتلى يوم الجمل ، وكان من بينهم « عمار بن ياسر[2] » ، وكان شيخا فى التسعين من عمره لا يزال يحتفظ بقوته البدنية والعقلية ، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم « ستقتلك الفئة الباغية » ، ولكى يدفع معاوية عن نفسه هذا

---

(١) عائشة لم تعقب احدا من رسول الله .

(٢) يقال انه طلب شرابا قبل الموقعة فجاءوه بقليل من اللبن ، فلما رآه وكبر وقال « انبأنى رسول الله ان آخر زادى من الدنيا اللبن » واقتحم صفوف الأعداء وهو يقول لأصحابه « هل من رائح الى الجنة ؟ الجنة تحت هذه البوارق » ، واصابه سهم فى مقتل وقال « غدا التقى الأحبة : محمد وحزبه » .

الوصف قال لأهل الشام : اننا لم نقتله ، وانما قتله الذين جاءوا به ، وشاع بينهم هذا التفسير الذى ينافى الحقيقة .

● واستعرت نار المعركة ، وكان الامام يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة كما هو الحال فى أحدث التشكيلات الحربية فى وقتنا الحاضر . وطاف على القتلى يستغفر لهم ويطلب لهم الرحمة . وقد دفن القتلى من الجانبين فى حفرة عظيمة لعلها أعظم قبر عرف فى التاريخ ، وجزع الامام لكثرة الضحايا من الطرفين ، فأرسل الى معاوية خطابا يقول فيه : « أبرز الى فأينا قتل صاحبه تولى الأمر بعده » حقنا لدماء المسلمين ، واستشار معاوية صديقه « عمرو بن العاص » ، فقال له « لقد أنصفك الرجل فابرز اليه » فأغضبه ما أشار به عمرو ، واعتقد أنها مكيدة للتخلص منه ، لأنه يعلم أن عليا ما بارز أحدا الا صرعه . ولكى يزيل الشك من نفس معاوية ، تقدم عمرو لمبارزة على ، فتبارزا وهما على فرسيهما ، فصرعه « على » وكاد أن يقضى عليه لولا أنه انطرح على الأرض فى فزع وضراعة ، فألقى عليه الامام نظرة عطف وتركه لشأنه ، وأبت عليه شهامته ونخوته أن يصرع رجلا على هذا الوضع من الذلة والمهانة .

● وفى اليوم السابع ألقى على فى أصحابه خطبة لم يحاول أن يستغل حماسهم ولا أن يعدهم بمباهج الدنيا ونعيمها اذا تم لهم النصر ، وانما كان حديثه يختلف عن الأحاديث التى تتطلبها أمثال هذه المناسبة[1] .

---

(١) من كتاب « فى رحاب على للاستاذ خالد محمد خالد » .

وقال فى آخر هذه الخطبة « .. الا وانكم ملاقوا القوم غدا فأطيلوا قيام الليل وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله النصر والصبر » .

● واشتبك الجيشان وأنهك القتال جيش الشام وبات النصر مؤكدا لجيش الامام ، وابتلى « على » فى هذه الموقعة بمحنة لم يمتحن بمثلها مسلم قط ، فقد قتل ثلاثة من أبنائه وخمسة من أحفـــاده .

خدعة التحكيم :

ولما توقع معاوية الهزيمة فى موقعة صفين لجأ الى عمرو داهية العرب يسأله الحيلة للتخلص من هذا المأزق ، فقال له عمرو « ترفع المصاحف على رؤوس الرماح وتدعو الى تحكيم القرآن فان قبلوا التحكيم اختلفوا وان ردوه اختلفوا » وحدث ما توقعه عمرو ، ولقد أدرك الامام انها خدعة وقال لأتباعه « انها كلمة حق أريد بها باطل ، ولكنهم لم يقتنعوا ، وتكاثر عليه أنصار التحكيم وأنذروه بقولهم » أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا كان مصيرك كمصير عثمان بن عفان ، ويقف الامام بين فئتين كبيرتين أولاهما فى الشام تطالب بالثأر من قتلة عثمان ، والثانية فى العراق تصيح « لا حكم الا حكم الله » وكانوا فى الأمس القريب من أتباعه ، كما ألحوا عليه أن يستدعى قائده « الأشتر النخعى » من ساحة الحرب ، فاستدعاه مكرها ، وقد كان جيشه قاب قوسين أو أدنى من الحاق الهزيمة بجيش الشام المتداعى ، وكان هذا سببا فى تذمر كثير من الجند الذين رأوا فى ذلك ضياع

ثمرة جهودهم وتضحياتهم ، وبذلك تصدع جيش على بين قابل للتحكيم ومعترض عليه .

● وأعلن معاوية أن ممثله فى التحكيم « عمرو بن العاص » ورشح على «عبد الله بن عباس» لثقته به ، ولكن الأغلبية رشحت « أبا موسى الأشعرى » فنزل عند رأيهم ، وكان فى الواقع مكرها على قبول التحكيم ومكرها على اختيار ممثله فى التحكيم ، واتفق أبو موسى وعمرو على أن يخلعا الامام ومعاوية حسما للنزاع ، ويكون الأمر شورى بين المسلمين ، وبدأ أبو موسى حديثه بخلع على ومعاوية ثم تلاه عمرو فقال : « ان أبا موسى خلع صاحبه كما سمعتم ، وانى أخلعه كما خلعه ، وأثبت معاوية فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه . وثار أبو موسى لهذه الخدعة وهذا الغدر الذى لم يتوقعه من عمرو ، وفر بدينه الى مكة ، واعتزل فيها نادما على أنه لم يستمع الى نصيحة ابن عباس الذى أشار عليه أن يتأخر فى الكلام بعد عمرو ، ولكن عمرو قدمه لكبر سنه ولسبقه الى صحبة النبى فى ظاهر الأمر ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة .

● وفرق الخلاف أصحاب الامام ، وتحولوا الى شيع تقاتل بعضها بعضا ، ففريق يرون أنه من الكفر معارضة الدعوة الى تحكيم كتاب الله فى اصلاح ذات البين والصلح بين المسلمين ، وهددوا الامام اذا لم يستجب لهذه الدعوة ، وفريق الخوارج الذين خرجوا عن طاعته عنـــدما وافق على مبـــدأ التحكيم ، واعتبروا قبول التحكيم كفرا ونقضا للبيعة التى تمت له باجماع أكثرية المسلمين ، وكان يرون أنه لا يصح قبول التحكيم مع جماعة امتنعت عن بيعته وانشقت عليه ، وكون الخوارج لأنفسهم

حكومة مستقلة ، وصارت لهم عقائد خاصة يدافعون عنها بكل ما لديهم من قوة ، وحاول الامام أن يعود بهم الى حظيرة الجماعة ، ولكنهم أبوا الا محاربته فى موقعة « النهروان » التى انتصر فيها جيش الامام واستأصل شأفتهم ولم ينج منهم الا القليل .

● أما الامام على فقد كان يحز فى نفسه أن يكون سببا فى هذا الخلاف بين المسلمين ، وكان يقول « هلك فى محب غال ومبغض قال (أى شديد الكراهية) ، كما كان يقول « انه ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى[1] ، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى » أى أنه بلغ من حب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة تجعله جديرا بالوصاية على النبى ، وبلغ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين كالغلاة من الخوارج الذين يعلنون كفره ويسبونه على المنابر .

سياسته مع الولاة :

كان على كرم الله وجهه شديد المراقبة لعماله ، وكان يعطى كل واحد منهم عهدا يقرؤه على الناس حين يتولى أمرهم ، فاذا أقروه بعد قراءته عليهم فهو عقد بينهم وبين حاكمهم ، وكان يرسل الأرصاد والرقباء ليبلغوا الامام ما يرون تبليغه ، وكان

(1) نشأت فى اليمن طائفة عبد الله بن سبأ ، وكان منافقا يظهر الاسلام وكان يقول للناس ان كل نبى له وصى ، وان عليا وصى محمد وانه خاتم الأوصياء بعد خاتم الأنبياء ، وانه اولى بالخلافة من عثمان ، والخلافة حق مقدس لآل البيت وظل ينتقل بين مصر والكوفة والبصرة ودمشق ينشر دعوته ويردد اكاذيبه .

بعض الولاة يضيقون بهذه الشدة ، وقد رحل كثير منهم الى الشام ليلحقوا بمعاوية ، مؤثرين دنياهم على دين على ، فلم يمنعهم من ذلك بل تركهم أحرارا يتخذون الدار التى تلائمهم .

● وكان يرى أن بعض الولاة الذين عينهم عثمان لم يكونوا أهلا لهذه الولاية ، مما أدى الى الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، فأصدر أمره بعزل هؤلاء وأحل محلهم من هم موضع ثقته ورد القطائع التى وزعت على المقربين الى بيت المال ، وقال فى احدى خطبه بعد أن تمت له البيعة « .. الا ان كل قطيعة قطعها عثمان ، وكل مال أعطاه عثمان من بيت المال فهو مردود الى بيت المال ، فان الحق لا يبطله شىء ، وان فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق » .

● وكان من بين من عزلهم « معاوية » الوالى على الشام ، رغم ما أشار اليه بعض أتباعه من ارجاء عزله والاستعانة به حتى يستتب له الأمر ، فرفض تلك المشورة وقال قولته المأثورة: « لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى ، ولا أحب أن يرانى الله متخذ المضلين عضدا » ، وعين واليا جديدا على الشام « سهيل بن حنيف » فحال معاوية بينه وبين دخول الشام .

● وكان كرم الله وجهه يحاسب الولاة على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها ، وكان اذا بلغه عن أحد الولاة ما يمس سمعته ، حاسبه حسابا عسيرا وكتب اليه يعظه ، ثم يرفع طرفه الى السماء ويقول « اللهم انك تعلم أنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك » .

• وقد كتب الى واليه « الاشتر النخعى » خطابا جاء فيه •• ليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، ومن طلب الخراج بغير عمارة الأرض ، خرب البلاد واهلك العباد » •

علمه وثقافتــه :

كان كرم الله وجهه يشهد نزول القرآن الكريم ، ويسبق غيره فى تلقيه عن رسول الله ، ولذا كان أكثر العارفين بتأويله وتفسيره ومعرفة أسراره وأحكامه منذ نعومة أظفاره ، وكان يقول بحق : « سلونى عن كتاب الله ما شئتم ، فوالله ما من آية من آياته الا وأنا أعلم أنزلت فى ليل أو نهار » •

• وقد سأله ابن الكوا ذات يوم « هل كلم الله سبحانه وتعالى أحدا من ولد آدم قبل موسى » ، فقال له الامام « كلم الله تعالى جميع خلقه برهم وفاجرهم وردوا عليه الجواب » وذلك مصداق قوله تعالى « واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى •• » الآية •

• ولقد اختص بلقب « الامام » من بين الخلفاء الراشدين وجرى هذا اللقب على جميع الألسنة ، فكان صاحب آراء فى التوحيد ، والفقه ، والشريعة ، والعقائد ، والقضاء ، والتصوف ، والأخلاق ، والأدب ، والبلاغة ، والنحو سبقت جميع الآراء فى الثقافة الاسلامية ، وقد ترك لنا آثارا خالدة من هديه ومأثور قوله نثرا وشعرا ، وقد جمعت آثاره الأدبية فى كتاب « نهج البلاغة » الذى جمع مادته الشريف الرضى أحد شعراء العهد

العباسى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وفضلا عن الآثار الأدبية فقد اشتمل هذا الكتاب على كثير من العلوم الكونية[١] ، ويقول فى خلق الانسان « ما أعجبه !! ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم • والشحم شحم الحدقة ، واللحم اللسان ، والعظم عظام الأذن » •

• واليه كرم الله وجهه يرجع الفضل فى تأليف علم النحو . وسبب ذلك أن أبا الأسود الدؤلى سمع بنتا له أرادت أن تتعجب من شدة الحر فقالت ما أشد هذا الحر (برفع كلمتى أشد والحر معا) فقال لها قولى « ما أشد هذا الحر (بفتح الكلمتين) فسألته عن السبب فلم يجد دليلا يقنعها به لأن العرب كانت تتكلم بلغتها الفصحى المطبوعة عليها بالسليقة والسجية قبل أن تختلط بالأعاجم ويتعثر لسان العرب ، فقام فى الحال الى الامام على وحكى له قصة ابنته . فأملى عليه الأصول الأولى لعلم النحو وما يجب رفعه ، وما يجب نصبه الى غير ذلك وقال له « انح هذا النحو يا أبا الأسود » فعرف من هذا اليوم باسم علم النحو[٢] •

---

(١) ويكفى أن نقرأ كلامه عن عجائب المخلوقات كخلق الخفاش والطاووس والنحل والنمل والطير والأجنة فى الارحام وعجائب خلق النبات والسحاب المسخر بين السماء والارض الى غير ذلك مما يدل على مبلغ ثقافته فى علوم الدين والدنيا ، ولكن من الاسف نسب اليه بعض الشيعة أقوالا لم تصدر منه رغبة منهم فى تقديسه .

(٢) وتتابع العلماء على تأليف علم النحو ، ومن أشهرهم « سيبويه » . وقد ظهرت أهمية هذا العلم فى تلاوة القرآن ، فقد قرأ أحدهم « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام فى كلمة « ورسوله » بدلا من ضمها ، وهذا يغير المعنى رأسا على عقب .

● وكان كرم الله وجهه واعيا لكل ما يسمعه حتى لقب بذى الأذن الواعية ، وكفاه فخرا قول رسول الله عليه الصلاة والسلام فى شأنه « أنا مدينة العلم وعلى بابها » .

● وقد كان بحرا زاخرا بمختلف العلوم الدينية والدنيوية ، وكان أسلوبه آية فى البلاغة والفصاحة يأسر قلوب السامعين له فى خطبه ورسائله ونصائحه ، وله حكم مأثورة الى يومنا هذا جرت مجرى الأمثال تنير السبيل لكل من يطلب الهدى والرشاد فمنها قـوله ــ المرء مخبوء تحت لسـانه ــ قيمة كل امرىء ما يحسنه ــ الناس أعـداء ما جهلوا ــ ما أكثر العبر وأقـل الاعتبار ــ أفضل الأعمال ما أكرهت عليه نفسك ــ منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال ــ العلم يحرسك وأنت تحرس المـال ــ من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء الظن به ــ من أصلح بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس ــ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ــ الهم نصف الهرم ــ قلة العيال أحد اليسارين ــ كم من أكلة حرمت أكلات ــ أفضل الزهد اخفاء الزهد ــ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ــ اذا أقبلت الدنيا على امرىء أعارته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ــ لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه ــ اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه ــ أحسن الى من شئت تكن أميره ، واسـتغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره ــ ان لله ملكا ينادى كل يوم لدوا للموت ، واجمعوا للفنـاء ، وابنوا للخراب ــ ما من ذنب

استعظمته الاصغر عند الله ، وما من ذنب استصغرته الاعظم عند الله[1] .

● وقد اشتهر الامام بالبلاغة والقدرة على الارتجال ، كما اشتهر بقوة الحجة لافحام الخصم ، وكان حكيما تتفجر الحكمة من جوانبه وخطيبا مفوها تتدفق البلاغة على لسـانه ويأسر القلوب بجوامع كلمه .

ولقـد كان امام الخطباء بعد رسول الله ، وله خطب رائعة فى المناسبات المختلفة للترغيب فى الجهاد واثارة الحماس فى نفوس المحاربين ، وبيان أسلوب معاملة العدو فى الحرب ومعاملة الأسرى ، وحق الحاكم على قومه ، وحق قومه عليه ، هذا فضلا عن الخطب الدينية التى تدعو الى التقوى والعمل الصالح وتحض على بذل الخير ومراقبة الله فى السر والعلن ، مع كثرة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ولا يتسع المجال لذكرها ، ويكفى أن نقتبس بعضـها فيقول فى احداها « .. وانكم فى أيام أمل ، من ورائه أجل ، فمن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله .. ألا وانى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولم أر كالنار نام هاربها .. ألا وان الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، وان الآخرة وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، وان أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، فان اتباع الهوى يصد عن الحق ، وان طول الأمل ينسى الآخرة .. » .

(1) وهذا مصداق معنى الحديث الشريف ان المؤمن يرى ذنوبه كجبل يخشى أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على انفه ، فيهشه ولا يبالى . (البخارى)

● ويقول فى وصفه الدنيا « الدنيا دار بلاء وابتلاء ، فى كل أكلة منها غصة ، ومع كل جرعة شرقة ، ولا ينال العبد منها نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوما من عمره الا يهدم آخر من أجله ، ومع ذلك فالدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن عرفها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، وهى مهبط وحى الله ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة » .

● ومن أقواله فى الدعاء والتضرع الى الله « اللهم قنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسن الأمانة ، وطهرنى بالتوبة ، واستصلحنى بالعافية ، وأذقنى حلاوة المغفرة ، واجلعنى طليق عفوك وعتيق رحمتك ، واكتب لى أمانا من سخطك » .

● وكان يقول فى مناجاته لربه « كفانى عزا أن تكون لى ربا ، وكفانى فخرا أن أكون لك عبدا » .

● وقد أنشد كرم الله وجهه الشعر فى أغراض مختلفة ، وكان معظمه فى الحكم والموعظة ، ومنها قوله :

يعز غنى النفس ان قل ماله ... ويغنى غنى المال وهو ذليل

وقوله :

فما أكثر الاخوان حين تعدهم ... ولكنهم فى النائبات قليل

وقوله :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم

وقوله :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقوله :

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت فى غيره بكيت عليه

وقوله :

وذى سفه يواجهنى بجهل ... وأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما ... كعود زاد فى الاحراق طيبا

وقوله :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبى

وقوله :

لو أنا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شئ

وقال ينصح ابنه لحسن فى قصيدة طويلة يقول فيها :

وما المرء الا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبا فى الناس أعلى المراتب
وكن طالبا للرزق من باب رحله ... يضاعف لك الرزق من كل جانب[1]

قضاياه وفتاويه :

كان كرم الله وجهه أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة وكثيرا ما كان أبو بكر يسعى اليه ويقول : « أفتنا يا أبا الحسن » كما كان يفعل عمر ويقول « لولا على لهلك عمر » ، وكان يقول كذلك اذا أفتاه فى مشكلة « لا أبقانى الله بعدك يا أبا الحسن » ومنه استجاب الله دعاءه ..

---

(1) هناك ديوان كبير منسوب الى الامام على ولكن اشك فى صحة ذلك .

● وقد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم وهو شاب الى اليمن لتولى القضاء ، فقال « يا رسول الله لا علم لى بالقضاء ، فقال له الرسول « ادن منى » فدنا منه ، فضربه على صدره بيده وقال « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » قال على « ما أخطأت فى قضاء بين اثنين بعدها » .

● وجىء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها ، فاستفتى الامام على فى وجوب اقامة الحد عليها ، فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع حملها وقال له « ان كان لك سلطان عليها، فلا سلطان لك على ما فى بطنها » فضمنها « على » حتى وضعت غلاما ثم ذهبت اليه فرجمها .

● وروى أنه جىء الى عمر بامرأة أجهدها العطش حتى كادت تهلك ، فمرت على راع فطلبت اليه شربة ماء ، فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها ففعلت ، فاستشار الحاضرين فى رجمها ، فقال على : « هذه مضطرة ، والمضطر يركب الصعب من الأمور فخل سبيلها » فأخذ عمر بمشورته .

● وروى أن عمر استدعى امرأة كانت يتحدث عنها الرجال ، ففزعت وارتاعت فأجهضت ، فقال له أصحابه لا شىء عليك فانك لم ترد الا خيرا ، وكان « على » فى المجلس لا يتكلم ، فقال له عمر « ما رأيك يا أبا الحسن ؟ فقال انها أجهضت خوفا من استدعائك لها ، فأنت السبب فى سقوط جنينها ووجبت عليك الدية » فأخذ برأيه .

● وروى أن فرسا لرجل شرد من داره ، فركل أحد المارة فقتله ، فعرض أولياء القتل الأمر على الامام على يطالبون

صاحب الفرس بدم القتيل ، فاستدعى على صاحب الفرس الذى أثبت أنه لم يهمل فى حراسته ، وأنه هرب من داره بسبب خارج عن ارادته ، فحكم « على » بعدم المسئولية[1] .

● وروى أن تخاصم شخصان أثناء مساومة فى شراء ، فلطم أحدهما الآخر ، فلجأ الى على ، وأتى بالبينة على هذه اللطمة . فأمره « على » بضرب المعتدى تسع درات ، فقال المعتدى عليه: انى قد عفوت عنه يا أمير المؤمنين ، فقال له على « أصبح هذا من حق السلطان لا من حقك[2] » .

● وروى أنه شكا اليه شاب أن بعض الناس خرجوا مع أبيه وكان يحمل مالا كثيرا ، ثم عادوا ولم يعد معهم ، وادعوا أنه قد مات ، فأمر على بالتفريق بينهم وسأل كل واحد منهم على حدة[3] عن والد الفتى ، من أى مكان خرج معهم ؟ ومتى كان ذلك ؟ وما الطريق الذى سلكوه ؟ ومن غسله ومن كفنه ؟ وكان المتهم يجيب ، والكاتب يسجل وقد لاحظ التناقض بين اجاباتهم. ولما ضيق عليهم الخناق اعترفوا بجريمتهم .

● وكان كرم الله وجهه أعلم الناس بعلم المواريث ، وله أصول فقهية وحسابية يعرف بها حق كل وارث من التركة ، ولأهمية هذا العلم البالغة سمى بعلم الفرائض .

---

(١) وهذا يطابق ما نص عليه القانون المدنى المصرى من أن حارس الحيوان مسئول عما يحدثه من ضرر ، اذا ضل الحيوان أو شرد الا ان ثبت أنه لم يهمل حراسته فلا مسئولية عليه .

(٢) وهذا يطابق مايأمر به القانون فى الوقت الحاضر الذى يقرر حق المجتمع فى معاقبة المجرم ، ولو تنازل المجنى عليه عن حقه .

(٣) وهذا يطابق ما جرى عليه الحال فى اجراءات المحاكم الجنائية من مناقشة المتهمين واستجواب كل منهم على انفراد .

● جاءت اليه امرأة وشكت أن أخاها قد مات عن ستمائة دينار ، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد ، فقال لها : انها قسمة صحيحة ؛ لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ قالت : هو كذلك .

● وسئل يوما أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين، فأجاب على الفور : صار ثمنها تسعا ، وسميت هذه الفريضة « المنبرية » لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة .

● وكان — كرم الله وجهه — شديد الذكاء ، يستخدم حدة ذكائه وفطنته فى الفصل بين المتنازعين ؛ روى أن رجلين من قريش أعطيا امرأة مبلغا من المال كوديعة لديها ، وقال لها « لا تعطيه الى واحد منا دون صاحبه » وبعد مدة جاء أحدهما وادعى أن صاحبه قد مات ، وطلب اليها أن ترد الوديعة ، فترددت فى ذلك ، ولكن الرجل ألح عليها واستنجد بأهلها حتى ردت اليه الوديعة بحسن نية ، وبعد مدة حضر الرجل الآخر وطالب المرأة بالوديعة ، فأخبرته بما حدث ، فاختصما الى عمر ابن الخطاب ، فتردد فى الحكم وأحال الموضوع الى على الذى أدرك بذكائه أن الرجلين احتالا على المرأة ليأخذا منها الوديعة مضاعفة ، فقال على للشاكى « ان وديعتك عند هذه المرأة ، فاذهب وأحضر صاحبك حتى تدفعها اليكما حسب الاتفاق » وهكذا رد الامام كيد الرجلين عن المرأة التى سلمت الوديعة لأحدهما بحسن نية .

● وقد أرسى الامام على بقضائه وفتاويه[1] وآرائه كثيرا من القواعد الأصولية والمبادىء القانونية الهامة فى المسائل الدينية والمدنية والجنائية التى لا يزال يجرى بها العمل الى يومنا هذا فى العلم المتحضر[2] .

● روى أنه حضر بين يدى عمر بن الخطاب رجل وامرأة ، فقال الرجل للمرأة « يا زانية » فقالت له « انت أزنى منى » فهم عمر أن يجلدها ، ولما استشار على فى ذلك قال له « على المرأة حدان ، لأن المرأة فى قولها للرجل « أنت أزنى منى » فقد اعترفت بما رماها به من الزنا ، فحق عليها حد الزنا ، وفى الوقت نفسه قذفت الرجل بأنه « زان » فحق عليها حد القذف » — أما الرجل فليس عليه شىء ؛ لأنه لم يعترف بما قذفته به المرأة ، ولم تقم أى دليل على ذلك .

شجاعته وبطولته :

كان كرم الله وجهه مثلا أعلى فى بطولته وفدائيته ، وليس أدل على ذلك من أن يمثل دور الرسول وينام على فراشه متدثرا بغطائه ، عندما عزمت قريش على قتل النبى ، وأحاط المشركون بداره ، وكلهم من صناديد قريش الذين وقع عليهم الاختيار لطعنه طعنة رجل واحد يتفرق بعدها دمه بين القبائل ،

---

(١) الفرق بين القضاء والفتوى : ان القضاء ملزم للطرفين المتنازعين وتقوم الدولة بتنفيذ حكم القاضى ، اما الفتوى فهى غير ملزمة بل اختيارية ان طلبها ، وليست الدولة ملزمة بتنفيذها .

(٢) من كتاب « على بن ابى طالب » القاضى والمفتى للمستشار عبد الستار آدم .

ولم يفكر فيما قد يناله من الأذى عندما تكشف قريش الحيلة ،ولم يكن يهمه الا أن يكون النبى وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ؛ وخرج الرسول وحثا التراب فى وجوه المشركين فأعمى الله أبصارهم ، وأنزل الله على رسوله فى طريقه الى المدينة فى شأن على قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » ، ولم تكن مهمته مقصورة على المبيت مكان الرسول ، بل كان عليه أن يرد الودائع والأمانات التى كان يحتفظ بها الرسول الأمين لأصحابها عن أهل مكة ، ولقد قام بالمهمة على خير وجه ولم يصبه أذى رغم السيوف التى سلت لتقضى على النائم فى فراش رسول الله ، وصدق رسول الله حين قال وهو يودعه « لن يخلص اليك شىء تكرهه منهم » .

● وتتجلى شجاعته — كرم الله وجهه — فى جميع غزواته مع النبى ؛ ففى غزوة بدر سلمه الرسول اللواء وهو ابن عشرين سنة ، وكان النصر حليف جيش المسلمين ، وفى غزوة أحد خرجت قريش لتثأر لقتلاها فى يوم بدر ، ولتمحو آثار الهزيمة المنكرة التى لحقتها فى غزوة بدر ، ويسقط اللواء فى يد « مصعب بن عمير » ويدعو الرسول « عليا » ليحمل اللواء فيحمله بيده اليسرى ، ويده اليمنى تقبض على سيفه البتار الذى قال عنه الرسول « لا سيف الا ذو الفقار ، ولا فتى الا على » ويصول « على » ويجول على أرض المعركة التى امتلأت بقتلى المشركين ، وفى نفس الغزوة يخرج من صفوف المشركين « أبو سعد بن أبى طلحة » وينادى عليا ليبارزه ، فيضربه « على » بسيفه ضربة تطرحه أرضا ، وبينما وهو يستعد ليجهز

عليه بضربة قاضية ؛ اذ تظهر عورته وهو ملقى على الأرض ، فيغلب عليه الحياء ويغمض عينيه ويعود الى مكانه فى الصف ، وكثيرا ما أصاب المقتل من عدوه ، فلم ينتهز الفرصة السانحة بين يديه لاحراز النصر على عدوه ، فهو لا يهمه النصر الا اذا كان نصرا شريفا عادلا ، لا نصرا مستغلا غادرا ؛ ويفضل أن يخسر المعركة من أن يسلبه النصر فضيلة من الفضائل التى يتحلى بها ، وينزف الدم من جراحه أثناء المعركة فلا يوهن ذلك من عزمه ، حتى اذا انتهى القتال تقدم النساء لاسعاف الجرحى ، واقترب منه الرسول الكريم . وأخذ يسهم معهن فى تضميد جراحه — وانتصر المسلمون فى أول الأمر . ولكن تحول النصر الى هزيمة لمخالفتهم لأوامر الرسول .

● وتتجلى بطولته كرم الله وجهه فى « غزوة خيبر » فأمام حصنها المنيع ، ارتدت فى اليوم الأول كتيبة يقودها أبو بكر ؛ ثم ارتدت الرسول فقال « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ولم ييأس الرسول فقال « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله عليه » واشرأبت أعناق المسلمين لمعرفة هذا الرجل ، فاذا به يسلم الراية لعلى ، وكان يشكو فى هذا اليوم رمدا فى عينيه ، فبلل الرسول أصابعه بريقه الطهور ، ومس بها عينيه ، وما لبث ان اقتحم باب الحصن فى مقدمة الكتيبة وهو يهتف « الله اكبر خربت خيبر[1] » .

● وفى غزوة الخندق هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد عمل برأى

(١) يذكرنى هذا بنصر ٦ اكتوبر واقتحام المصريين لخط بارليف وهم يهتفون هتاف النصر « الله اكبر » .

« سلمان الفارسى » الذى أشار عليه بحفر خندق حول المدينة ، وقد أبلى على فى هذه الغزوة بلاء حسنا ، وأعمل فى المشركين سيفه ، وكان من بين الصرعى « عمرو بن ود » قائد المشركين .

• وبلغ من شجاعة « على » أنه كان يخرج الى مبارزيه حاسر الرأس وهم مقنعون بالحديد والدروع .

• وكان قادة الجيش يتفاءلون بكتابة اسمه على سيوفهم كأنما هو فأل خير وآية النصر والظفر » .

• وبلغ من حبه للحرب والجهاد أنه هم بتسمية ابنه «حرب» لأنه كان يرشحه للجهاد فى سبيل الله وهو أشرف الصفات لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه « الحسين » فجرى « على » على هذا الاختيار فى تسمية أخويه « الحسن والمحسن »

• وكان يخرج ليلا الى المسجد يحرسه بعض أصحابه حرصا على حياته بدون علمه ، فلما علم بذلك قال لهم « أتحرسوننى من أهل السماء أم من أهل الأرض ؟ » قالوا : من أهل الأرض فقال لهم « لا شىء يقضى فى الأرض حتى يقضى فى السماء » .

• ويقول الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه (فى رحاب على) ان بطولة على رغم شموخها واقتدارها كانت بطولة مسالمة عاقلة عادلة ، بطولة يقودها العقل لا العاطفة ، ويمسك بزمامها التقوى والورع » .

• ولما وقع النزاع بينه وبين معاوية على الخلافة ، أشار عليه ابن عمه « عبد الله بن عباس » أن يخدع أعداءه ، والحرب خدعة كما يقولون ، فيجيبه قائلا : « والله لا أبيع دينى بدنياهم

أبدا » فكان كرم الله وجهه يؤثر الهزيمة مع الاخلاص والتقوى على النصر الذى يتحقق عن طريق الخداع والمكر والمداهنة .

نبله وسمو خلقه :

كان حرصه كرم الله وجهه على المثل العليا فى الأخلاق والصفات أول ما تصبو اليه نفسه ، فلم يكن يهمه النصر على الأعداء بقدر ما كان يهمه المحافظة على هذه المثل التى اقتبسها من عشرته لرسول الله ، من أجل هذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يندبه فى مهام الحرب التى تتطلب قسطا وافرا من ضبط النفس ولين الجانب ، ففى يوم فتح مكة كان « سعد بن معاذ » الأنصارى يحمل الراية على رأس كتيبة من المسلمين ، فصاح قائلا فى نشوة الظفر « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة » (يريد الأخذ بالثأر من قريش لما ألحقوه بالمسلمين من الأذى) ، فنادى الرسول « اليوم يوم المرحمة لا الملحمة » وعلى الفور نادى عليا وقال : « أدرك سعدا ، وخذ الراية منه ، فكن أنت أول داخل بها » .

• وبعد فتح مكة أرسل الرسول الى القبائل المجاورة سرايا[1] تدعوها الى دين الله دون قتال أو حرب ، وكان خالد بن الوليد على رأس احدى هذه السرايا ، ولكن خالدا أعمل السيف فى المعارضين لدعوته ، دون أن يأخذهم بالحسنى ، ولما علم رسول الله بما فعله خالد ، برىء الى الله مما صنع خالد ، واستدعى « عليا » وأعطاه من المال ما يكفى لدفع الدية عن القتلى

(١) مفردها السرية وهى الجيش الذى يرسله الرسول دون وجوده .

وتعويض أهلهم عن كل خسارة لحقت بهم ، وقام « على »
بالمهمة خير قيـام .

● ومما يدل على نبله وسمو خلقه أنه بعد أن تحقق له النصر
فى موقعة الجبل ، كان كبير الأمل أن يرجع معاوية الى الحق ،
وقد علم أن بعض أنصاره كانوا يسبون معاوية ويلعنون أهل
الشام لالتفافهم حوله ، فأمرهم « على » أن يكفوا عن ذلك ،
فقالوا له « يا أمير المؤمنين ألست على الحق وهم على الباطل »
قال : « بلى ورب الكعبة ، ولكنى كرهت لكم أن تكونوا شتامين
لعانين ، ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح
ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من
جهله » .

● ولما انتصر على جيش عائشة فى موقعة الجمل ودعها أكرم
وداع وقيل انه أرسل معها عشرين امرأة عممهن بالعمائم وقلدهن
السيوف ، وقالت عائشة : انه هتك سترى بهؤلاء الرجال الذين
وكلهم بى ، فلما وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وظهرن
على حقيقتهن .

● وبعد موقعة الجمل حاول « على » أن يقنع معاوية بالصلح
فلم يوفق ، والتقى الجيشان فى « صفين » شرقى نهر الفرات ،
وبادر جيش معاوية الى الطريق الوحيد الذى يفضى الى نهر
الفرات فاحتلوه ليمنعوا جيش الامام من الوصول الى المـاء ،
وأرسل « على » لمعاوية يذكره بشرف القتال ويطلب اليه أن
يترك طريق المـاء مفتوحا أمام الظامئين ، فرفض معاوية ،
وقضى أصحاب « على » يوما وليلة بلا ماء وجفت حلوقهم ،
وأشرف الضعفاء منهم على الموت ، وفى الصباح تحركت قوة

من جيش « على » نحو النهـر وأجلتهم عن أماكنهم واحتلت
مواقع المـاء ، فقال له أصحابه « امنعهم عن المـاء كما منعوك »
فقال كرم الله وجهه « لا والله لا أجازيهم بمثل فعلهم ، ففى
حد السيف ما يغنى عن ذلك » .

وكان أول أمر أصدره « على » ألا يمنع عن المـاء شارب
وأن يسمح لجيش معاوية بالتزود من ماء الفرات وقال لهم :
« خذوا من المـاء حاجتكم وارجعوا الى معسكركم » ثم قال
لأصـحابه « خلو عنهم فان الله قـد نصركم عليهم بظلمهم
وبغيهم » .

● وقـد أشار عليه بعض صحابته أن يفاجىء جيش معاوية
ويأخذهم على غرة وأن يوجه اليهم ضربة خاطفة توفر عليه كثيرا
من الوقت والجهد فى احراز النصر ، ولكنه أبى وأمر المنادى
أن يعلو أقرب ربوة من معسكر معاوية ويدعوهم الى مراجعة
أنفسهم والرجوع الى الحق ، واذا لم يذعنوا فانه سيبدأ القتال
من الغـد ، كل ذلك لأنه كان يتحاشى القتال ويرغب فى السلام
حقنا لدماء المسلمين .

● وقـد أشار عليه بعض أصحابه أن يتألف ببعض المـال
هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بعطائه ، فقال لهم الامام (لا ولله
أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور ؟)

● وقـد عرف عنه كرم الله وجهه أنه لم يبدأ أحدا بقتال
قط ، وكان يقول لابنه الحسن « لا تدعو الى مبارزة ، فان دعيت
لها فأجيب ، فان الداعى اليها باغ والباغى مصروع » .

● وكان لا يعتبر عدوا الا من رفع السيف لقتاله ، وقد حظر

على جنده أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح ، وقد صلى فى موقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء بل لعله يعرف أحد القتلى من أعدائه ، ويذكر له ماضيه فى الاسلام فيقف على قبره ويرثيه .

• وقد أخبره أحد أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة وهى تحث الناس على قتاله ، فأمر بجلد كل منهما مائة جلدة وقال « أمرنا الله أن نكف عن النساء وهن مشركات ، افلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ »

تواضعه :

• كان كرم الله وجهه من أشدالناس تواضعا ؛ وكان فى خلافته يلبس الثوب الخشن ، فاذا طلب اليه أصحابه أن يعطى نفسه بعض حقها بحكم منصبه يقول لهم « اذا رأى الناس الخليفة فى ثوب خشن كنت لهم نعم القدوة ، والثوب الخشن يقينى شر الزهو والاعجاب بنفسى » ثم يتلو قوله تعالى : **« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »** .

• ويروى أنه عندما قدم من اليمن بعد احدى الغزوات ، تعجل هو الى لقاء النبى تاركا جنوده فى ضواحى مكة بعد أن استخلف عليهم أحدهم ، فبدأ لهذا أن يلبس جنوده حللا زاهية من تلك التى عادوا بها من اليمن ، فما كاد على يراهم فى هذه الحلل حتى أمرهم بخلعها وارتداء ملابسهم المعتادة قبل أن

يصلوا الى رسول الله الذى أقره على ما فعل .

• وبلغ من تواضعه أنه كان يأبى المظاهر التى تحيط عادة بالحكام ، فقد أبى أن ينزل قصر الامارة بالكوفة ، وعندما كان يلح عليه أصحابه فى هذا الشأن يقول لهم «ان عمر بن الخطاب كان يهرب من قصر الامارة الى كوخ من طين » .

• وكان يمشى وهو خليفة للمسلمين فيرشد الضال ويعين ذا الحاجة ، ويرى الشيخ الكهل فيتحمل عنه حاجته .

• وكان يشترى حاجات بيته ويحملها لأهله ، فاذا اقترب منه بعض مرافقيه ليحملها عنه أبى وقال لهم « أبو العيال أحق بحمله » .

• وكان يطحن دقيقه على الرحى بنفسه ، ويرقع ثيابه بيده حتى لا يبقى فيها مكان لرقاع جديدة .

• وكان يخرج الى سوق الكوفة وهو أمير المؤمنين حاملا أحد أسيافه التى كان يعتز بها قائلا « سيف طالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذى خلق الحب والنوى لو كان عندى ثمن ازار ما بعته » .

ورعه وتقواه :

كان كرم الله وجهه يخلو الى نفسه بالليل مصليا متهجدا فى الثلث الأخير من الليل ثم يخرج الى صلاة الفجر مناديا فى الطرقات « الصلاة الصلاة يا عباد الله » .

• وبلغ من روعه أنه كان اذا أراد أن يشترى شيئا لنفسه تحرى بين البائعين رجلا لا يعرفه ، فاشترى منه ما يريد خشية أن يحابيه البائع اذا عرف أنه أمير المؤمنين •

• وكان لا يحابى أهله ولا يجاملهم فى شىء ، وقد أراد عقيل أخوه أن يقرر له « على » شيئا من بيت المال فأباه عليه ، لأنه ليس من حقه ؛ فتركه وذهب الى معاوية وهو يقول : ان أخى خير لى فى دينى ومعاوية خير لى فى دنياى •

• ولولا تقواه لكان أدهى العرب ولا انتصر على خصومه ، وعندما سمع ما يقال عن معاوية من تفوقه عليه فى الدهاء قال « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويخدع ، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس » •

والواقع أن ترفعه عن الوسائل التى يرفضها دينه وخلقه هيأت لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره ، ويقول الأستاذ خالد : « أنه تخلى عن كل مواهب الرجل « الداهية » وأحل محلها كل مواهب الرجل « الورع » » •

• وتراه فى جميع خطبه يبدأ السامعين يحثهم على تقوى الله وطاعته حتى فى أحرج الظروف وأقساها ، وعندما خطب أول جمعة له بالكوفة ، وجيش الشام يهدد ملكه قال « أوصيكم عباد الله بتقوى الله وطاعته ، وأشفقوا من عذابه ، فانه لم يخلقكم عبثا وقد أحصى عليكم أعمالكم وقدر آجالكم ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا وان الآخرة هى دار القرار •• » •

زهــــده :

كان كرم الله وجهه مثلا أعلى فى الزهــد ، وكان يأكل خبز الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان من حقه كأمير للمؤمنين أن يأخذ كفايته من بيت المـال الذى كان يستقبل كل يوم الأموال الطائلة من الأقاليم التى افتتحها المسلمون ، ولكن يمنعه من ذلك ورعه وزهده فى الدنيا ، وكان يقول « هل يرضينى أن يقول الناس عنى : أمير المؤمنين ، ولا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان ؟ والله لو شئت لكان لى صفو هذا العسل ، ولباب هذا البر ومناعم هذه الثياب ، ولكن هيهات أن يغلبنى الهوى وحولى بطون جوعى واكباد حرى » •

« قال عقبة بن علقمة : دخلت على « على » فاذا بين يديه لبن حامض وكسرة خبز يابسة ؛ فقلت أتأكل هذا وأنت أمير المؤمنين فقال لى : « كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ، ويلبس أخشن من هذا (وأشار الى ثيابه) فان لم آخذ بما أخذ خفت ألا ألحق به » •

• وقدم بيد يديه ذات يوم طعام الفالوزج (البالوظه) فقال : أنت طيب الرائحة والطعم واللون ، ولكنى أكره أن أعود نفسى ما لم تعتــده •

• وكان يطوف بالأســواق وازاره الى نصف ســاقه يأمر الناس بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع والوفاء فى الكيل والميزان •

• وكان يحث الناس على الزهد[1] ، ومن أقواله فى هذا الشأن : « ٠٠ الا ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وأن الآخرة قد أتت مقبلة فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ٠٠٠ » ٠٠ الا وان الزاهدين فى الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا ٠٠ الا وان من اشتاق الى الآخرة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ومن طلب الجنة سارع الى الطاعات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه مصائبها ٠٠

• وكان كرم الله وجهه كلما تراءت له الدنيا بمباهجها ومفاتنها صدها بعبارته المأثورة عنه « يا دنيا اليك عنى ، يا دنيا غرى غيرى » ٠

• ومن كلامه فى الزهد : الدنيا[2] جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على مخالطة الكلاب » وكثيرا ما كان يردد قولته المشهورة « آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » ٠

مصرعه :

تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصرعه اذ قال : ذات يوم « اتعلم من أشقى الأولين ؟ » قال له على « أشقى الأولين عاقر ناقة صالح » فقال له « أتعلم من أشقى الآخرين ؟ »

---

(١) الزهد الذى كان يدعو اليه لم يكن زهد الكسالى المتواكلين، بل كان على العكس يحث على العمل والكفاح والنضال وتحمل المسئولية مصداقا للحكمة المأثورة « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ٠

(٢) المراد بالدنيا مازاد عن الحاجة الشرعية وما دعت اليه الضرورة ٠

فسكت قليلا ، فقال له الرسول « الذى يضربك على هذه (مشيرا الى جبهته) فتخضب هذه بالدم (مشيرا الى لحيته) » ٠

• وكان يشعر فى قرار نفسه أنه سيموت مقتولا ، وكثيرا ما كان يقول عندما يشتد به الضيق « ما يؤخر أشقاها[1] ؟ » ٠

• وفى ليلة الوفاة رأى الرسول فى نومه فيهرع اليه مستغيثا من هذه الحياة التى يحياها وكلها مشقة وعناء ، فيمسح الرسول الكريم على رأسه ويقول « يا على ادع الله أن يريحك منهم » فيدعو وتفتح أبواب السماء وتستجيب لهذا الدعاء ، ويسير الى الصلاة فيلقى حتفه ٠

• ولما خرج الى صلاة الصبح قبل مقتله ، صاحت الأوز فى طريقه ، فطردها أصحابه فقال لهم « دعوهن فانهن نوائح »

• وقد اغتاله أحد الخوارج « عبد الرحمن بن ملجم[2] » بعد أن عبر شوارع الكوفة ، يوقظ أهلها للصلاة ، فاقترب منه فى ظلام الليل الدامس وطعنه بسيف مسموم ، وكان الامام بلا حرس كعادته ؛ ووقع الاعتداء عليه فى فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة ٠

---

(١) اشارة الى ما جاء فى سورة الشمس بشأن قاتل ناقة صالح « اذا انبعث اشقاها » ٠

(٢) اتفق هذا مع اثنين من زملائه الخوارج على قتل الامام على بالعراق ومعاوية بالشام وعمرو بن العاص بمصر ، ليتخلصوا من خلافاتهم ، ولينتقموا لاخوانهم الذين قتلوا فى موقعة « النهروان »؛ ولم يتمكن المكلف بقتل معاوية من تنفيذ خطته ، حيث أصابته الضربة فى غير مقتل ، فقبض عليه وأعدم ، وقد مرض عمرو فى تلك الليلة واناب عنه صاحب شرطته خارجة فقتله الخارجى ظنا منه أنه عمرو ، وضرب المثل به « أراد عمرا وأراد الله خارجة » ٠

● وحمل الى داره حيث سمع أذان الفجر ، فأمر الملتفين حوله أن يذهبوا الى المسجد ليدركوا الصلاة قبل فواتها ، فأدوها ثم عادوا اليه .

● وقد نهى أصحابه بعد أن قبضوا على القاتل أن ينتقموا منه اكتفاء بالقصاص المشروع ، وقال لهم « أحسنوا نزله وأكرموا مثواه ، فان أعش ، فأنا أولى بدمه قصاصا أو عفوا ، وان أمت فألحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين ، ولا تقتلوا بى سواه ، ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تمثلوا به فانى سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ، ولكن أصحابه ، لم ينفذوا وصيته فقد مثلوا به ثم حرقوا جثته .

● وقبل أن يسلم الروح زاره وفد من أصحابه وأشـــاروا عليه أن يستخلف ابنه الحسن من بعده ، فأبى وقال « لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر بأموركم » وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون فقـــالوا له « ماذا تقـــول لربك ان لقيته دون أن تستخلف علينا ؟ » فأجابهم وهو فى سكرات الموت « أقول له تركتهم دون أن استخلف عليهم ، كما ترك رسولك المسلمين دون أن يستخلف عليهم » ، ثم دعا بنيه وأملى عليهم وصيته ، وقد جاء فيها « .. أوصـــيكم بتقوى الله ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. الله الله فى الفقراء والمساكين ، أشركوهم فى معاشكم .. ولا تخافن فى الحق لومة لائم .. لا تدعوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقولوا للناس حسنا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » وفاضت روحه الطاهرة مع غروب شمس

اليوم التالى وكان فى الثالثة والستين من عمره فى السن التى مات فيها رسول الله .

● ولمـــا بلغ عائشة خبر موته حزنت عليه كثيرا وتمثلت بقول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينـــا بالاياب المســـــافر

● ويختلف الرواة فى مكان قبره فمنهم من يقول : انه دفن بالكوفة وأخفى قبره حتى لا ينبشه الخوارج ، ومنهم من يقول : ان ابنه الحسن نقله الى المدينة ودفنه الى جوار فاطمة زوجته الى غير ذلك من الأقوال .

● وبوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وتولى الخلافة بعده ابنه الحسن ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية حقنا لدماء المسلمين وقد نظر النبى صلى الله عليه وسلم بعين الغيب الى هذا المصير فقال : الخلافة من بعدى ثلاثون عاما .

● وخير ما نختم به هذا الباب وصف ضرار لعلى « كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطلق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيـــا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة (أى الدمع) طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكنا والله مع قربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته .. يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته وقد أرخى الله سدوله ، وغارت نجومه قابضا على لحيته يبكى ويقول : يا دنيا غرى غيرى .. » .

خاتمة

عزيزى القارىء :-

أما وقد عرفت اليسير من أخلاق الخلفاء الراشدين — وكل ما ذكر انما هو قطرة من بحر النبوة الزاخر — فلا شك أنك ازددت حبا لهم وتقديرا لتضحياتهم ، فلم تكن الخلافة فى نظرهم مغنما يتكالبون عليه ، وانما فرضت عليهم فرضا واعتبروها مسئولية عظمى وعبئا فادحا ، ولولا أن النكوص عليها يعتبر خيانة للاسلام والمسلمين لما أقدموا عليها ، وكفاهم شرفا أنهم أكثر الصحابة اتصالا بالرسول الكريم ، وأعظمهم حظوة لديه ، وقد بشرهم بالجنة فى حياتهم ، هذا فضلا عن انتسابهم اليه بالقرابة أو النسب أو المصاهرة وكفاهم شرفا أن كثيرا من آيات القرآن نزلت فى شأنهم ، وانه تم فى خلال عهدهم جمع القرآن ونسخه ونشره فى الأمصار صحيحا موحدا كما نزل ، يقرؤه ملايين الملايين من المسلمين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفاهم شرفا أن ثلاثة منهم استشهدوا فى سبيل الله ، وكانت شهادتهم أثناء الصلاة أو أثناء تلاوة القرآن ففازوا بخيرى الدنيا والآخرة ، وكفاهم شرفا أن لهم الفضل الأكبر فى تأسيس الدولة الاسلامية الكبرى ونشر لواء العدل بين الناس جميعا جزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

● وكل ما أرجوه أن تدعو لى دعوة خير ، وسيكون جزاؤك بمثل ما تدعو به لأخيك عن ظهر الغيب كما ورد فى الحديث الشريف .

رأى مشكور

ايماء الى ما نشر بمجلة آخر ساعة العدد ٢٢٠٩ الصادر فى ١٩٧٧/٢/٢٣ (باب مجرد خواطر) ، وتحت عنوان الفكر الاسلامى والأدب العربى فى مختلف العصور .

تفضل الأستاذ مأمون غريب مشكورا فأشاد بالدور الكبير الذى يضطلع به المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فى نشر الثقافة الاسلامية بين المواطنين وعلى رأسه السيد/ أمينه العام .

وتناول السلسلة الاسلامية التى تضم دراسات فى الاسلام وكتبا اسلامية والتى تصدر بصفة دورية فذكر أنها تحتوى على مادة خصبة فى الفكر الاسلامى لأنها تلقى ضوءا على جوانب مختلفة فيه بطريقة سهلة ومبسطة .

وعرض سيادته لجانب آخر يتعلق بسهولة تداول هذه الكتب ورخص أسعارها بالنسبة للأسعار السائدة فى عالم الكتب اليوم ، ومن رأيه أن يتبنى المجلس فكرة أن يعرض بين الحين والحين (فى أى من السلسلتين) بعض الدراسات عن الأدب العربى فى مختلف عصوره الاسلامية مع تحقيقها تحقيقا علميا خدمة للمكتبة الثقافية المعاصرة ، ومحافظة على ذخائر تراثنا العريق .

ويسر المجلس أن يكون محل اهتمام القاعدة العريضة من جمهور قرائنا وهو دائم التفاعل مع نبضاتها ، يتلقى رسائلها ويرد عليها اذا كانت حرية بذلك ، ولا أدل على هذا من أن هذه الكتب الشهرية تنتهى بصفحة لابداء الرأى فيها ، حيث نعمل — جاهدين — على تحقيق هذه الرغبات ، واضعين نصب أعيننا تجلية تراث أجدادنا ، وعرضه فى اطار اسلامى بناء .

وسوف نعمل أيضا على تحقيق هذه الرغبة التى تهم الغالبية العظمى من مواطنينـــا فنعرض لنماذج من التراث الأدبى فى القريب باذن الله ..

ونسأل الله تعـــالى التوفيق والسداد

سكرتير تحرير الرسائل

ابراهيم عبد الرازق

ما رأيك ؟

— وبعد يا عزيزى القارىء الكريم ...

فهذه رسالة اسلامية يقدمها لك المجلس الأعلى للشئون الاســـلامية فى الخامس عشر من كل شهر عربى ؛ لعلها تحوز رضاك ، وترد على بعض الأسئلة التى تراودك ، وتدور بخلد كل مســـلم غيور على دينه ، حريص على الاستزادة من مناهل الاسلام العذبة .

اكتب لنا برأيك فيها ، وما تراه من توجيهات تهدف أولا وأخيرا الى خدمة أجل رسالة وأتم هدف .وثق أننا سنكون عند حسن ظنك ، وسنلبى طلبك وستكون رسالتك موضع الاعتبار والتقدير فنرد عليها اذا كانت حرية بذلك .

والله نسأل أن يلهمك السداد والتوفيق .

على أن يكون خطابك متضمنا البيانات التالية :

الاسم : . . . .

العنوان : . . . .

الوظيفة : . . . .

ويرسل الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

القـــاهرة ٣ شارع الأمير قدادار متفرع من ميدان التحـــرير .

(قسم الرسائل والتراث)

فهرس

رقم الايداع ٣١٣١ / ٧٧

الترقيم الدولى ٥ — ٠٤٣ — ٢٤١ — ٩٧٧ ISBN

مطابع الأهرام التجارية